أبو الحسن علي الحسني الندوي

وأذن في الناس بالحج

ملتزم النشر والتوزيع
المجمع الاسلامي العلمي
ندوة العلماء ـ ص. ب ـ ١١٩
لكهنؤ ـ الهند

الطبعة الثالثة

من مطبوعات المجمع الاسلامي العلمي - لكهنئو

رقم ١٣٦

مطبعة لكهنئو ببليشنك هاوس، لكهنئو - الهند

١٤٠٠ هـ المصادف ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله واصحابه اجمعين ، أما بعد :

فقد صدر لي كتاب باسم « الاركان الاربعة في ضوء الكتاب والسنة ، وبمقارنة مع الديانات الاخرى » من دار الفتح في بيروت ، في عام ١٣٨٧ هـ ، تحدثت فيه عن الصلاة ، والزكاة، والصوم ، والحج ، عن مقاصدها وأسرارها ، كما قررها الكتاب والسنة ، وكما فهمها علماء المسلمين ، والراسخون في العلم والدين ، وعنيت ببيان روحها وحقيقتها ، ورفع اللثام عن وجهها ، وازالة ما طرأ عليها من تكلفات عجمية ، وأفكار دخيلة، وتفسيرات خاضعة للعوامل السياسية أو الفلسفات الاجنبية ، مع مقارنة باشكالها ونظمها ، وشرائعها وتقاليدها في الديانات الاخرى ـ اليهودية ، والمسيحية ، والبرهمية بصفة خاصة ـ وقد لقي الكتاب ترحيبا وتقديرا في المشتغلين بالعلم والدين ، والحمد لله اولا وأخرا .

وقد رأى بعض الاخوان أن أجرد من هذا الكتاب البحث الخاص بالحج ، لأنه فريضة تتطلب اهتماما أكثر ، وعناية أشد وأقوى ، لبعد مركزه عن أكثر أجزاء العالم الاسلامي ، ووجوبه مرة في العمر ، فتشد اليه الرحال، وتقطع فيه البراري والقفار، وتركب فيه الاجواء والبحار ، ويأتيه المسلمون من كل فج عميق ، ومرمى سحيق ، فيتطلب بطبيعة الحال فهما عميقا لمقاصده وأسراره ، وتشبعا بروحه وحقيقته ، وكان اخضاعه للاتجاهات الجديدة ، والمعاني السياسية أكثر من كل ركن ، حتى أصبح في نظر كثير من المثقفين ، بل الكتّاب الاسلاميين مؤتمرا سياسيا عالميا ، يعقد كل عام ، وليست له الا هذه القيمةالسياسية الاجتماعية ، فوافق المؤلف على رأي كثير من أصدقائه أن يجرّد هذا المقال من ذلك الكتاب ، وينشر كرسالة مفردة ، لأنها تعرض الحج في اطاره الاسلامي الاصيل الواسع ، وتثير معانيه العميقة، ومقاصده البعيدة ، وروحه القوية ، الابراهيمية الحنيفة ، وها نحن أولاء نقدم الطبعة الثانية لهذه الرسالة — وفيها زيادة وتنقيح — الى الحجاج الكرام ، وزوّار بيت الله الحرام ، ليكونوا في أداء هذا الركن العظيم على بصيرة ، ومعرفة أصيلة عميقة ، بمقاصده وحقيقته ، وروحه الذي شرع لأجلها ، والله الموفق والمعين .

أبو الحسن علي الحسني الندوي
١٥ شعبان ١٣٩٤ هـ
١ ايلول ١٩٧٤ م
ندوة العلماء — لكهنؤ — الهند

بسم الله الرحمن الرحيم

« وأذّن في الناس بالحج ياتوك رجالا،
وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق.
ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله
في أيام معلومات على ما رزقهم من
بهيمة الانعام ، فكلوا منها واطعموا
البائس الفقير • ثم ليقضوا تفثهم ،
وليوفوا نذورهم ، وليطوّفوا بالبيت
العتيق [1]» •

الاسلام دين توحيد وتجريد
لا وساطة فيه ولا تمثيل :

الاسلام دين توحيد خالص ، دين لا يؤمن

---

١ ــ الآيات (٢٧ ــ ٢٨ ــ ٢٩) من سورة الحج •

بالوساطة بين العبد وربه(٢) ، ولا بمشهود محسوس يركز عليه الانسان تفكيره ، ويصرف اليه همته ، ليتخيل به الاله الذي لا تدركه الابصار، ويرتبط به في خياله ، ويتمسك بأذياله، فلا وسائط ولا مظاهر، ولا صور ولا أصنام ، ولا هياكل ولا طبقة كهّان ولا سَدَنة : « واذا سألك عبادي عنّي فاني قريب، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون(٣)» « فاعبد الله مخلصا له الدين • ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى(٤) » •

اذا فالاسلام دين يطلب تجرّدا في الخيال،وسموا في الفكر ، ونقاء في الارادة والنية ، واخلاصا في

٢ ــ الا الرسل والانبياء ، بمعنى أنهم واسطة بين الخالق والخلق في تبليغ الرسالة ، والتعريف بالله وصفاته ، وما يليق به، وما لا يليق ، والارشاد الى الطريق المستقيم•

٣ ــ الآية (١٨٦) من سورة البقرة •

٤ ــ الآيتان (٢ ــ ٣) من سورة الزمر •

العمل والتطبيق ، وانقطاعا عن الغير ، لايتصور فوقه وأكثر منه ، ومستوى في الفكر والعقيدة ؛ لم تبلغ الانسانية ولا الاديان والفلسفات والنظم الدينية أو العقلية الى مثله أو قريب منه ،وقد وصف الله نفسه بما لا مزيد عليه في الدقّة والسمو ،فقال: «ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير(٥) » .

حاجة الانسان الى « مشاهد » يوجه اليه أشواقه ،

ويحقق رغبته من التعظيم والدنو :

ولكن الفطرة البشرية ، هي الفطرة البشرية ، فالانسان ما زال ـ ولا يزال ـ باحثا عن شيء يراه بعينه ، فيوجّه اليه أشواقه ، ويقضي به حنينه ، ويشبع به رغبته الملحّة في التعظيم والدنو .

شعائر الله وحكمتها :

وقد اختار الله أمورا ظاهرة محسوسة ، اختصت

---

٥ ـ الآية (١١) من سورة الشورى .

به ، ونسبت اليه ، وتجلّت عليها رحمته ، وحفتها عنايته ؛ بحيث اذا رُئيت ذُكر الله ، وارتبط بها وقائع وحوادث وأفعال وأحوال تذكر بأيام الله وآلائه ، ودينه وتوحيده ، وحسن بلاء أنبيائه ، وسماها «شعائر الله»(٦) التي جعل تعظيمها تعظيمه، والتفريط في جنبها تفريطا في جنبه ، وسمح للناس أن يقضوا بها حنينهم الكامن في نفوسهم ، ورغبتهم الفطرية في الدنو والمشاهدة ، بل حثّ على ذلك ، ودعا اليه فقال : « ذلك ، ومن يعظّم شعائر الله ، فانها من تقوى القلوب(٧) » وقال: « ذلك ومن يعظّم حرمات الله فهو خير له عند ربّه(٨) » .

عنصر الهيام والحنان في طبيعة الانسان ، أثرهما في الحياة ومنزلتهما من الدين :

ثم ان الانسان ليس عقلا مجردا، ولاكائنا جامدا

---

٦ ــ اقرأ البحث اللطيف في ذلك ، في حجة الله البالغة ، لحكيم الاسلام احمد بن عبد الرحيم الدهلوي (ج ١ ، ص ٥٥).

٧ ــ الآية (٣٢) من سورة الحج .

٨ ــ الآية (٣٠) من سورة الحج .

يخضع لقانون ، أو ارادة قاسرة ، ولا جهازا حديديا يتحرك ويسير تحت قانون معلوم أو على خط مرسوم ، ان الانسان عقل وقلب ، وايمان وعاطفة ، وطاعة وخضوع وهيام وولع ، وحب وحنان ، وفي ذلك سر عظمته وشرفه وكرامته ، وفي ذلك سر قوته وعبقريته وابداعه ، وسر تفانيه وتضحيته ، وبذلك استطاع أن يتغلب على كل معضلة ومشكلة ، وأن يصنع العجائب والخوارق ، واستحق أن يحمل أمانة الله التي اعتذرت عنها السموات والارض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الانسان ، ووصل الى ما لم يصل اليه مَلَك مقرَّب ، ولا حيوان ، ولا نبات ، ولا جماد ·

ان صلة هذا الانسان بربه ليست صلة قانونية عقلية فحسب ، يقوم بواجباته ، ويدفع ضرائبه ، ويخضع أمامه ، ويطيع أوامره وأحكامه ، انما هي صلة حب وعاطفة كذلك ، صلة لابد أن يرافقها ويقترن بها ويتحكم فيها حنان وشوق ، وهيام

ولوعة ، وتفان وتهالك ، والدين لا يمنع من ذلك ، بل يدعو اليه، ويغذيه ويقويه، فتارة يقول القرآن: « والذين آمنوا أشد حبا لله(٩)» وتارة يقول : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ، أحبَّ اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين(١٠) » ويذكر أنبياءه ورسله ، وينوِّه بحبهم وحنانهم ، ويحدث عن أشواقهم وتفانيهم في هذا الحب ، فيقول عن يحيى ـ عليه السلام ـ : « وآتيناه الحكم صبيا • وحنانا من لدنَّا وزكاة ، وكان تقيا(١١)» • ويحكي قصة خليله ابراهيم كيف آثر حب الله وطاعته على حب ولده ، وفلذة كبده ، وكيف وضع السكين على حلقومه ، وحاول ذبحه حتى شهد ربُّه بصدقه

---

٩ ـ الآية (١٦٥) من سورة البقرة •

١٠ ـ الآية (٢٤) من سورة التوبة •

١١ ـ الآيتان (١٢ ـ ١٣) من سورة مريم •

وحسن بلائه ، وقال : « يا ابراهيم • قد صدَّقت الرؤيا ، انا كذلك نجزي المحسنين • ان هـذا لهو البلاء المبـين(١٢) » ولذلك قال في وصف ابراهيم : « ان ابراهيم لحليم أوّاه منيب(١٣) » •

« الصفات » هي التي تثير الحب وتبعث الحنان ، لـذلك أطـال واكثر مـن ذكرهـا القرآن :

وذلك سر اطالة القرآن في ذكر صفات الله وأفعاله وآلائه ونعمائه ، واشادته بها ، والعودة اليها مرة بعد مرة ، فان الصفات هي التي تثير الحب وتبعث الحنان وتوجد الاشواق ، وذلك سر تفصيل القرآن الذي يعبر عنه بعض علماء الكلام وأئمة الاسلام ، « بالنفي المجمل والاثبات المفصل(١٤) » فان الاثبات هو الذي ينبع منه الحب ، ويفيض منه الحنـان ،

١٢ ــ الآيات (١٠٤ ــ ١٠٥ ــ ١٠٦) من سورة الصافات •
١٣ ــ الآية (٧٥) من سورة هود •
١٤ ــ التعبير لشيخ الاسلام ابن تيمية •

وتنبعث به الاشواق ، وتتغذى به العاطفة ، فاذا كان النفي رائد العقل ، كان الاثبات رائد القلب .

ولولا هذه الصفات العليا وأسماء الله الحسنى ، التي نطق بها القرآن ، ووردت بها السنة ، وهام بها الهائمون ، وتغنى بها العارفون ، وسبّح بها المسبّحون ، وسبح في بحارها ونزل في أعماقها الغواصون ، لكان هذا الدين خشبيا جامدا ، لا يملك على أتباعه قلبا ، ولا يثير فيهم عاطفة ، ولا يبعث فيهم حماسة ، ولا يحدث في القلب رقة ، ولا في الصلاة خشوعا ، ولا في العين دموعا ، ولا في الدعاء ابتهالا ، ولا في الجهاد تفانيا ، وكانت علاقة العبد بربه علاقة محدودة ميتة لا حياة فيها ولا روح ، ولا مرونة ولا سعة ، وكانت الحياة كلها حياة رتيبة خشبية ، لا عاطفة فيها ولا أشواق ، ولا حنان فيها ولا هيام ، واذا : أي فرق بين الحياة والموت ، وبين الانسان والجماد ؟ !

ما قيمة كأس لا تطفح ولا تفيض ؟ :

لقد كان المسلم في حاجة الى غذاء للقلب ، والى زاد للعاطفة ، والى أن يقضي شوقه ، ويروي غلته ، مرة بعد مرة ، وعلى فترة بعد فترة ، وكان في حاجة الى أن تطفح كأسه ، فما قيمة كأس تمتلىء ولا

تطفح ؟ • وكان في حاجة الى أن تفيض هذه الكأس، فما قيمة كأس تطفح ولا تفيض ؟ !

تسليـة البيت والحـج

لحنان المسلم وهيمانه :

وقد تفطّن حجة الاسلام « الغزالي » بذكائه النادر ، وفقهه الدقيق لأسرار التشريع لهذه النكتة، وعرف أن الشوق غريزة في الانسان الحي السليم ، وحاجة من حاجاته فيبحث له عما يقضي به حاجته ، ويروي غلتـه ، وكان البيت العتيق وما حوله من شعائر الله ، والحـج وما فيـه من مناسك ، خير ما يحقق رغبته ، ويسلي حنانه وعاطفته ، وقد قال الله تعالى : « واذ بوّأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا ، وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والركّع السجود . وأذّن في الناس بالحج يأتـوك رجالا وعلى كـل ضامر يأتين من كـل فج عميق • ليشهدوا منافع لهـم ، ويذكروا اسـم الله في أيام

معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ٠ ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوّفوا بالبيت العتيق (١٥) » ٠

يقول الغزالي :

« فالشوق الى لقاء الله عز وجل يشوقه الى أسباب اللقاء لا محالة، هذا مع أن المحب مشتاق الى كل ما له الى محبوبه اضافة، والبيت مضاف الى الله عز وجل ، فبالحري ان يشتاق اليه لمجرد هذه الاضافة ، فضلا عن الطلب لنيل ما وُعد عليه من الثواب الجزيل (١٦) » ٠

ويردفه شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، فيشير الى نفس النكتة، ويجعلها حكمة الحج الاساسية ، فيقول ؛

« وربما يشتاق الانسان الى ربه أشد شوق ، فيحتاج الى شيء يقضي به شوقه فلا يجد الا الحج (١٧) » ٠

---

١٥ ـ الآيات (٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩) من سورة الحج ٠
١٦ ـ احياء علوم الدين (ج ١ ـ ص ٢٤) ٠
١٧ ـ حجة الله البالغة (ج ١ ص ٥٩) ٠

لقد كان للمسلم ان يقضي هذا الشوق ، وان يبرز هذا الحنان ، وان تفيض كأسه في الصلوات التي يصلّيها كل يوم ، فيسلّي بها قلبه ، ويطفىء بها غلته ، ويهدىء بها ثائرته ، ويخفف بها حرارة شوقه ، ووهج نفسه، ولكنها قطرات محدودة تتكون خشوعا ، أو تسقط دموعا ، انها قطرات قد لا تفي بما يجيش في الصدر من حنان وولوع ، وهي قطرات قليلة في بعض الاحيان لا تسمن ولا تغني من جوع ٠

طفرة أو قفزة واسعة من

سجن ضيق الى عالم فسيح :

وكان للمسلم ان يروي ظمأ روحه ، ويقضي حاجة حنانه ، ويكسر سَورة نفسه ، ويثور على « وثنية » عاداته ومألوفه ، وأن يغذي روحه بتخلية معدته في شهر رمضان ، ولكنها ساعات محدودات كذلك ، محفوفة بما يخفف أثرها ويضعف سلطانها ، من أكلة متخمة وريّ مسرف ، وراحة

منعمة ومجتمع ثائر ، ومدنية قد أحاطت بالصائم ، كما تحيط البحار المتلاطمة بجزيرة صغيرة ، فكان المسلم ــ بكل ذلك ــ في حاجة الى طفرة ، أو قفزة واسعة يفك بها أغلاله وسلاسله ، وينسلخ بها من سجنه الضيق القديم ، العتيق الخالق ، وينتقل من عالم كله قديم مألوف ، ومقيد محدود ، ومخطوط مرسوم ، ومصنوع معمول ، الى عالم كله جديد وطريف ، وحر منطلق ، وثائر مارد ، كله حب وغرام ، وشوق وهيام ، قد تحرر من كل رق ، وثار على كل وثن ، وكفر باختلاف الجنس واللون والوطن ، وآمن بوحدة الالهية ، وبوحدة المنعم والوهاب ، وبوحدة الانسانية ، وبوحدة العقيدة ، وبوحدة المطلوب ، وهتف الناس جميعا بصوت واحد: « لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

لقد كان المسلم في حاجة ــ بعد هذه الصلوات ، التي يصليها كل يوم ، وبعد شهر رمضان ، الذي

يصومه كل عام ، وبعد الزكاة ، التي يقوم بها اذا تم النصاب وحال الحول ـ الى أن يشهد موسما هو ربيع الحب والحنان ، وملتقى المحبين والمخلصين ، ومشهد العشاق والهائمين ٠

تحد لعبّاد العقل والمادة ، ودعوة الى الايمان بالغيب ، واتباع الامر المجرد :

وكان المسلم في حاجة الى ان يثور على عقله الرزين الوقور، المقلّد المطبّق ، وما لذة حياة لا ثورة فيها ولا تمرد ؟ ٠ وكان في حاجة الى ان يتخطى الدائرة المرسومة من عادات ومالوفات ، وقوانين وضعية ، وحضارة مصطنعة ، ومجتمع قاس ، ويفك قيوده وأغلاله ، وينتزع الزمام من يد عقله الذي استبد به زمانا طويلا ، ويعطيه لقلبه وعاطفته ، فيتحكمان فيه ما شاءا ، ويهيم على وجهه كما هام الهائمون ، ويذهب في الحب كل مذهب كما فعل العشاق المتيّمون ، فلا حرية لمن ملكه المجتمع ، وسيطرت عليه الحضارة ، وتسلطت عليه آلهة التقاليد ، ولا توحيد لمن أسرته العادات ، والمالوفات والشهوات ، ولا يعتبر مطيعا منقادا، مسلما مستسلما ، من اعتمد دائما على عقله لا ينشط لعمل ، ولا يسرع لامتثال أمر ، حتى يزنه في ميزان عقله المخلوق ، ويعرف فوائده المادية المحسوسة ٠ والحج بوضعه الدقيق الغامض ، المنافي

للمألوف المعروف لعبّاد العقل والمادة، وأسارى النظم والترتيبات، دعوة الى الايمان بالغيب ، واتباع الامر المجرد ، وعزل العقل عن وظيفته لمدة محدودة ، وفي مكان محدود ، وصرفه عن طلب الدليل والحكمة ، والمنطق والفلسفة في كل حين وأوان ، وفي كل زمان ومكان .

وقد أبدع حجة الاسلام الغزالي كل الابداع في بيان روح الحج وحقيقته ، ـ وهي الايمان بالغيب ، والامتثال المطلق ـ وصوَّر بقلمه البليغ وريشته البارعة ، صورة الحج الرائعة ، وبلغ الى لب الدين وجوهره ، وروح الاسلام وحقيقته في شرح هذا الركن العظيم ، وقد غفل عن ذلك أكثر العلماء والكتّاب في القديم والحديث ، يقول رحمه الله :

« ووضعه (أي البيت) على مثال حضرة الملوك ، يقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل اوب سحيق ، شعثا غبرا ، متواضعين لرب البيت ، ومستكينين له خضوعا لجلاله واستكانة لعزته ، مع الاعتراف بتنزيهه عن ان يحويه بيت ، أو يكتنفه بلد ، ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم ، واتم في اذعانهم وانقيادهم .

ولذلك وظّف عليهم فيها أعمالا لا تانس بها النفوس ، ولا تهتدي الى معانيها العقول ، كرمي الجمار بالاحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار ، وبمثل هذه الاعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فان الزكاة ارفاق، ووجهه مفهوم، وللعقل اليه ميل ، والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدو الله ، وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل. والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عزّ وجل بأفعال ، هي هيأة التواضع ، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل ، فأما ترددات السعي ورمي الجمار ، وأمثال هذه الاعمال ، فلا حظ للنفوس ، ولا أنس للطبع فيها ، ولا اهتداء للعقل الى معانيها ، فلا يكون في الاقدام عليها باعث الا الامر المجرد ، وقصد الامتثال للامر من حيث أنه أمر واجب الاتباع فقط .

وفيه عزل للعقل عن تصرفه ، وصرف النفس والطبع عن محل أنسه ، فان كل ما ادرك العقل معناه ، مال الطبع اليه ميلا ما ، فيكون ذلك الميل معينا للامر وباعثا معه على الفعل ، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحج على الخصوص : « لبيك بحجة حقا ، تعبدا ورقا » ، ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها .

واذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ، ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على سنن الانقياد ، وعلى مقتضى الاستعباد ، كان

ما لا يهتدى الى معانيه ابلغ انواع التعبدات في تزكية النفوس ، وصرفها عن مقتضى الطباع والاخلاق الى مقتضى الاسترقاق ، واذا تفطنت لهذا ، فهمت أن تعجب النفوس من هذه الافعال العجيبة ، مصدره الذهول عن أسرار التعبدات ، وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحج ان شاء الله تعالى [١٨] » .

ويقول في الرمي ، ويذكر أن العمدة فيه الانقياد والامر المجرد :

« فاقصد به الانقياد للامر اظهارا للرق والعبودية ، وانتهاضا لمجرد الامتثال ، من غير حظ للعقل والنفس فيه . ثم اقصد به التشبه بابراهيم عليه السلام حيث عرض له ابليس — لعنه الله تعالى — في ذلك الموضع ، ليدخل على حجته شبهة ، أو يفتنه بمعصية . فأمر الله عز وجل ان يرميه بالحجارة طردا له وقطعا لأمله ، فان خطر لك ان الشيطان عرض له وشاهده ، فلذلك رماه ، وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان ، فاعلم ان هذا الخاطر من الشيطان ، وانه الذي القاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي فيه برغم أنف الشيطان .

واعلم انك في الظاهر ترمي الحصى الى العقبة ، وفي الحقيقة

---

١٨ — احياء علوم الدين (ج ١ ص ٢٤٠) .

ترمي به وجه الشيطان ، وتقصم به ظهره ، اذ لا يحصل ارغام أنفه الا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى ، تعظيما له بمجرد الامر من غير حظ للنفس والعقل فيه [19] » .

ويقول في الذبح :

« فاعلم أنه تقرب الى الله تعالى بحكم الامتثال ، فاكمل الهدي ، وارجُ أن يعتق الله بكل جزء منه جزءا منك من النار ، فهكذا ورد الوعد ، فكلما كان الهدي أكبر ، واجزاؤه أوفر ، كان فداؤك من النار أعم [20] » .

« الحاج » طوع اشارة ورهين أمر :

والحج بمناسكه وأركانه وأعماله ، كله تمرين وتمثيل للاطاعة المطلقة ، وامتثـــال للامر المجرد ، وسعي وراء الامر ، وتلبية واجابة للطلب ، فالحاج يتقلب بين مكة ومنى ، وعرفات والمزدلفة ، ثم منى ومكة : يقيم ويرحل ، ويمكث وينتقل ، ويخيّم

١٩ ــ احياء علوم الدين (ج ١ ص ٢٤٣) .
٢٠ ــ احياء علوم الدين (ج ١ ص ٢٤٣) .

ويقلع ، انما هو طوع اشارة ورهين أمر ، ليست له ارادة ولا حكم ، وليس له اختيار ولا حرية ، ينزل بمنى فلا يلبث أن يؤمر بالانتقال الى عرفات من غير أن يقف بالمزدلفــة ، ريقف بعرفات ويظــل سحابة النهار مشتغلا بالدعــاء والعبادة ، وتحدثــه نفسه بالمكث بعد الغروب ليستجم ويستريح ، فلا يسمح له بذلك ، ويؤمر بالانتقال الى المزدلفة ، ويقضي حياته محافظا على الصلوات في وقتها ، ويؤمر بترك صلاة المغرب في عرفة لانه عبد لربــه ، ليس عبدا لصلاته وعاداته ، فلا يصليها الا بالمزدلفة جمعا مع العشاء ، وتطيب له الاقامة في المزدلفة ، فيريد أن يطيلها ، فلا يسمح لــه بذلك ، ويؤمر بالانتقال الى منى .

وهكذا كانت حياة ابراهيم وحياة الانبياء ، وحياة العشاق المؤمنين والمحبين والمتيمين ، نزول وارتحال ، ومكث وانتقال ، وعقد وحل ، ونقض وابرام ، ووصل وهجر ، ولا خضوع لعادة ، ولا اجابة لشهوة ولا اندفاع للهوى .

فضل المكان والزمان وموسم الحب والحنان :

وكان ينبغي أن يكون ذلك في مكان قد قام فيه أكبر المحبين وامام المخلصين ، وأشد الناس حبا لله ، وأحبهم الى الله في عصره ، وأسرته الصغيرة الطيبة المباركة ، بأكبر دور في الحب والولاء ، والاخلاص والوفاء ، والايثار والفداء ، وقاموا بأروع رواية وأجملها في تاريخ الحب السامي والولاء الطاهر ، والاخلاص المعجز ، وجاء من بعدهم الانبياء والمرسلون ، والموحّدون المخلصون ، والمحبون المتفانون في كل عصر ، فنسكوا مناسكهم وشهدوا مشاهدهم ، واحتذوا حذوهم ، وترسّموا خطاهم ، وحكوا هذه الرواية وأعادوها ، فطافوا حول البيت ، وسعوا بين الصفا والمروة ، ووقفوا بعرفات ، ويأتوا في المزدلفة ، ورموا الجمرات ، ونسكوا في منى .

وكان في المكان والزمان ، وفصول الرواية التي يعيدونها والأعمال التي يقلدونها ، ونسائم الحب التي ينشقونها ، والجو الفائض بالايمان والحنان الذي يعيشون فيه ، وطبقات الامة التي يتصلون بها

ويعاشرونها ، وفي هـذا الالتقاء الديني الروحي الذي لا نظير له على وجه الارض ، وفي هذا الضجيج من الدعاء ، والذكر والتلبية والاستغفار ، ما يعيد الحياة الى القلوب الميتة ، ويحرك الهمم الفاترة ، وينبه النفوس الخامدة ، ويشعل شرارة الحب والطموح التي انطفأت ، أو كادت تنطفيء ، ويجلب رحمة الله •

وقد أشار العلماء العارفون الى ما في اجتماع المسلمين العظيم ، واجتماع هممهم ودعواتهم وقلوبهم الصادقة من تحريك لرحمة الله تعالى ، ومن تحريك للقلوب القاسية واثارة للاشواق •

يقول حجة الاسلام الغزالي :

« فاذا اجتمعت هممهم ، وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم ، وارتفعت الى الله سبحانه أيديهم ، وامتدت اليه أعناقهم، وشخصت نحو السماء أبصارهم ، مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة ، فلا تظن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ، ويدخر عنهم

رحمة تغمرهم [21] »

ويقول شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

« اعلم ان حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين في زمان ، يذكر حال المنعم عليهم من الانبياء والصديقين ، والشهداء والصالحين ، ومكان فيه آيات بينات ، قد قصده جماعات من أئمة الدين ، معظمين لشعائر الله ، متضرعين راغبين وراجين من الله الخير ، وتكفير الخطايا ، فان الهمم اذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « ما رؤي الشيطان يوما ، هو فيه أصغر ولا أدحر ، ولا أحقر ولا أغيظ ، منه في يوم عرفة (الحديث)[22] » .

وقال :

« ومن باب الطهارة النفسانية ، الحلول بموضع لم يزل الصالحون يعظمونه ويحلون فيه ، ويعمرونه بذكر الله ، فان ذلك

---

٢١ ــ احياء علوم الدين (ج ١ ص ٢٤٣) .
٢٢ ــ حجة الله البالغة (ج ١ ص ٥٩) .

يجلب تعلق همم الملائكة السفلية ، ويعطف عليه دعوة الملأ الاعلى الكلية لاهل الخير ، فاذا حل به غلب ألوانهم على نفسه (٢٣) » .

تجديد الصلة بامام الملة الحنيفية « ابراهيم » من اعظم مقاصد الحج :

ومن مقاصد الحج الرئيسية تجديد الصلة بامام الملة الحنيفية ومؤسسها ابراهيم الخليل ، والتشبع بروحه ، والمحافظة على ارثه ، والمقارنة بين حياتنا وحياته ، وعرضها عليها ، واستعراض ما يعيش فيه المسلمون في العالم ، وتصحيح ما وقع في حياتهم من اخطاء او فساد او تحريف ، واعادة ذلك كله الى أصله ومنبعه ، فالحج عرضة سنوية للملة ، تضبط أعمال المسلمين وحياتهم ، ويتخلصون بها من نفوذ الامم والمجتمعات التي يعيشون فيها .

قال شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي:

« (ومن مقاصد الحج) موافقة ما توارث الناس عن سيدنا ابراهيم واسماعيل عليهما السلام، فانهما اماما الملة الحنيفية ، ومشرعاها للعرب ، والنبي

---

٢٣ ـ حجة الله البالغة (ج ١ ص ٥٩) .

صلى الله عليه وسلم بعث لتظهر به الملة الحنيفية ، وتعلو به كلمتها ، وهو قوله تعالى : « ملة أبيكم ابراهيم[24] » .

فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن امامها كخصال الفطرة[25] ، ومناسك الحج ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « قفوا على مشاعركم ، فانكم على ارث من ارث أبيكم[26] » .

اعادة قصة ابراهيم وتمثيلها في الحج

فمن أوضح ملامح الحج ، والروح المسيطرة على جميع أعماله ومناسكه ، هو الحب والهيام والتفاني ،

---

٢٤ ـ الآية (٧٨) من سورة الحج .

٢٥ ـ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « عشر من الفطرة : قص الشارب ، واعفاء اللحية ، والسواك ، والاستنشاق بالماء ، وقص الاظفار ، وغسل البراجم ، ونتف الابط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء ، يعني الاستنجاء ، قال الراوي ونسيت العاشرة الا أن تكون المضمضة » ، (في السنن) .

٢٦ ـ حجة الله البالغة : (ج ٢ ص ٤٢) .

واعطاء زمـام الجسم والفـكر للقلب والعاطفة ، وتقليد العشاق والمحبين ، وامامهم وزعيمهم ابراهيم الخليل ، فحينا طواف الحب والهيـام حـول البيت الحرام ، وحينـا تقبيل الحجر الاسود والإستلام ، وحينـا سعي بين غايتين ، وتقليد ومحـاكاة للأم الحنون ، حتى في تؤدتهـا ووقارهـا ، وفي جريها وهرولتها ، ثم قصد (لمنى) في يـوم معين هو يوم التروية ، ثم قصد الى (عرفات) ووقوف بساحتها وعرصاتها ، ودعاء وابتهال ، ثم بيتوتة في المزدلفة ، وعـودة الى (منى) وحلق ونحر ، اقتـداء لسنة ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

واوضح ملامح هذا الحب والتقليد رمي الجمرات ، الذي ليس الا تمثيلا لما صدر عن الخليل ، وفي تقليد أعمال المحبين تأثير غريب في انتقال عدوى الحب ، واتصال بالمركز الكهربائي الذي يجري منه التيار ، ووسيلة الى جلب رحمة الله وشمول عنايته ، وليس لمن ذاق حلاوة الحب منظر الذ من هذا المنظر ، الذي يجتمع فيه المحبون الطائعون لتمثيل هذه القصة التي حدثت قبل آلاف من السنين ، ولكن الله أفاض عليهـا الخلود ، وطلب من جميع

المحبين المخلصين اعادتها وتمثيلها ، اخزاء للشيطان ، وتقوية للايمان ، واقتداء بخليل الرحمن ٠

قصة ابراهيم في القرآن

ـ وصلتهـا بالبـلد الامين :

ولـد ابراهيم في بيت سـادن من أعظم سدنة البلد ، ينحت الاصنام ويبيعها ، ويقوم على الهيكل الكبير ، ويتصل به عن طريق العقيدة ، وعن طريق الحرفة ، وما أعظم المشكلة ، وما أعقد العقدة ، اذا التقت العقيدة بالحرفة ، واجتمعت العاطفة الدينية مع المصلحة المالية ، ولا شيء في هـذا الجو القاتم يثير الايمان والحنان ، ويبعث على الثورة على هذه الخرافة الوثنية ، ولكنه قلب سليم هُيِّئ للنبوة ، وأُعد لتكوين العالم الجديد ، « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبلُ ، وكنّا به عالمين(٢٧) » انه يبدأ ثورته بمرحلة ربمـا لا تصل اليهـا ، ولا تتناولها أعظم ثورة ، انها مرحلة الحياة المنزلية ، ومرحلة البيت

٢٧ ـ الآية (٥١) من سورة الانبياء ٠

الذي ولد فيه الانسان وفرض عليه أن يعيش فيه ، ويقع كل ما يحكيه القرآن في اسلوبه المعجز المبين من تحطيم ابراهيم للاصنام ، وغضب عبّادها وحيرتهم وعيّهم ، وانتقامهم من الفتى الثائر ، واشتعال النار وتحولها بردا وسلاما على ابراهيم ، ومناظرته البليغة ، أمام الملك الجبار (٢٨) .

وتنتهي هذه الثورة الى ان يضيق عليه البلد ، ويغضب عليه المجتمع ، وتطارده الحكومة ، فلا يحفل بكل ذلك ولا يحسب له حسابا ، كأنه شيء كان منه على ميعاد ، وكأنه نتيجة طبيعية قد توقعها ، فيخرج من بلده قرير العين ، رضي النفس ، اذ نجا برأس ماله وهو الايمان ، فيهيم في أرض الله ، وهو فريد لا يعرف له ثانيا ، والبلاد كلها نسخة واحدة من الوثنية والخرافة ، وعبادة الاوثان والشهوات حتى يهبط مصر ، فيكون هدف الامتحان والامتهان ، وينجو بصاحبته التي يطمع فيها الملك ، فيفلتان من

٢٨ ــ اقرأ الآيات (٥١ حتى ٧٠) من سورة الانبياء .

يده ، ويأويان الى أرض الشام ، فيغرس فيها الغرس الكريم ، ويلقي فيها عصا التسيار ، ويقـوم فيها بدعوته الى رفض الاوثان ، والى عبادة الله وحده ٠

وتطيب له الاقامة في الشام حيث يتوفر الخصب ويتسع الرزق ، ويتجلى جمال الطبيعة ، فلا يلبث ان يؤمر بالتوجه الى ارض لا تقابل أرض الشام في الخصب والماء ، وابراهيم لا يعرف لنفسه حقا ، ولا يرتبط بأرض أو وطن ، انما هو طوع اشارة ورهن أمر ، يعتبر العالم بلده والسلالة البشرية أسرته ، يؤمر بأن ينتقـل مع زوجته (هاجر) ومولودها الصغير الرضيع ٠

وهنا في واد ضيق ، أحاطت به الجبال الجرداء من كل جانب ، وقسا فيه الجو ، وفقد الماء ، وغاب الانيس ، وأوحش المكان ، يؤمر بترك زوجته المرأة الضعيفة العاجزة ، والمولود الصغير ، توكلا على الله ، وامتثالا لامره ، واستسلاما لقضائه ، فلا جزع ولا فزع ، ولا اشفاق ولا حذر ، ولا سأمة ولا ضجر ،

ولا خَوَرَ في العزيمة ولا ريبة في الوعد ، تمرد على التجارب، ومماكسة للطبيعة،وانقطاع عن الاسباب، وايمان بالغيب ، وثقة بالله ، حين تسوء الظنون وتزل الاقدام ٠

ويعرض المحذور والامر الواقع ، فيغلب على الطفل العطش ، ويشتد بالأم الظمأ ، ولا مطمع هناك في ثماد (٢٩) تروي غلتهما ، وهنا تجيش في المرأة عاطفة الامومة والحنان، والاشفاق على المولود الصغير ، فتخرج باحثة عن الماء ، أو عن سيارة تحمل الماء ، وتعدو مضطربة والهة بين جبلين ، يغلب عليها الحنين والاشفاق على الولد ، فترجع لتطمئن الى وجوده وحياته ، يغلب عليها الخوف على الحياة ، فتعدو مسرعة تبحث عن ماء ، أو عن أثر انسان ، وهي بين اضطراب توحيه الطبيعة ، وسكينة يوحيها الايمان والثقة ، وتعرف — وهي زوج نبيّ وأم نبيّ — أن البحث عن الاسباب لاينافي الايمان والثقة

---

٢٩ — الثمد : الماء القليل يتجمع في الشتاء ، وينضب في الصيف، أو الحفرة يجتمع فيها ماء المطر ، جمعه ، ثماد ٠

بالله ، فهي مضطربة في غير يأس ، ومؤمنة في غير تعطل وتواكل ، منظر لم تشهد السماء مثله ، وجاشت الرحمة الالهية ، وتفجَّر الماء بطريق معجز ، فكان ماء خالدا مباركا لا ينضب ولا يغيض ، قد وسع الخلق ، ووسع الاجيال ، وكان ماء لكل عصر ، ولكل أمة ، فيه غذاء وشفاء ، وفيه بركة وأجر .

وخلّد الله هذه الحركة الاضطرارية التي ظهرت من امرأة مؤمنة مخلصة ، فجعلها حركة اختيارية ، يكلف بها أعظم العقلاء ، واعظم الفلاسفة والنبغاء ، واعظم الملوك والعظماء في كل عصر ، وفي كل جيل ، فلا يتم نسكهم الا بالسعي بين هذين الجبلين اللذين هما ميقات كل محب ، وغاية كل مطيع ، والسعي خير ممثل لموقف المسلم في هذا العالم ، فهو يجمع بين العقل والعاطفة ، وبين الحس والعقيدة ، انه يستعين بالعقل ويستخدمه في مصالح حياته ، ولكنه ينقاد احيانا للعاطفة ، التي هي اعمق من العقل ، انه يعيش في عالم قد حُفّ بالشهوات ، ومُلىء بالزخارف والمظاهر ، لكنه يمر بينها كالساعي بين الصفا والمروة ، لا ينعرّج على شيء ولا يتقيد بشيء ، انما غايته وهمه ما يستقبله ، يعتبر حياته

اشواطا محدودة ، يقطعها اطاعة لربه واقتداء بسلفه ، لا يمنعه ايمانه من البحث والسعي ، ولا يمنعه سعيه عن التوكل على الله والثقة به ، حركة قيمتها وروحها ورسالتها « الحب » و « الانقيـاد » .

ويكبر الولد ، ويبلغ السن التي تقوى فيها عاطفة الابوة ، فيرافق والده ويسعى معه ، ويشعر الوالد العظيم الذي قويت فيه العاطفة الانسانية ، وطبع على الحب والحنان بميل شديد الى ولده وفلذة كبده ، وهنا المشكلة ، فان قلبه هو القلب السليم الذي خص بالمحبة الالهية ، انه ليس كقلب كل انسان ، انه قلب « خليل الرحمن »،والمحبة لا تعرف شريكا، ولا تحتمل عديلا،فكيف وهي المحبة الالهية، وهنا يتلقى ابراهيم اشارة بذبح الولد الحبيب ، ورؤيا الانبياء وحي ، وتتكرر الاشارة ، فعرف أنه أمر يراد ، وأنه جد ، فيختبر ولده ، لانه شيء لا يتم الا بموافقته وجلادته ، فيجد عنده غاية البر ، وغاية النجابة وغاية التضحية والتسليم للامر الالهي ، وهو نبي ابن نبي ، وجد نبي : « قال :

يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين (٣٠) » .

وهنا يقع ما لا يصدقه العقل ، فيخرج الوالد مع ولده ، النجيب الحبيب ، ذلك ليذبح ولده ، وهذا يطيع ربه ووالده ، وكلاهما مطيع للرب مستسلم لأمره ، وعرض لهما الشيطان ـ ذلك الذي تكفل بالضلال ، ومنع الانسان من السعادة ـ فحاول صرفهما عن التنفيذ ، وزين لهما العصيان ، ورغبهما في الحياة ، فاستعصيا عليه ، وأبيا الا أن ينفذا أمر الله ، وهنا يقع ما تضطرب له الملائكة ، ويفزع له الانس والجن ، فينتصب الولد للذبح ، ويضع الوالد السكين على حلقومه يحاول جهده الذبح ، ووقع ما أراده الله ، فلم يكن المقصود ذبح اسماعيل ، انما كان المقصود ذبح الحب الذي ينازع الحب الالهي ويقاسمه ، وقد ذبح بوضع السكين على الحلقوم ، انما ولد اسماعيل ليعيش ويزدهر ويتنسل ، ويولد في ذريته آخر الانبياء وسيدهم ، فكيف يذبح وكيف يموت ، قبل أن يتحقق ما أراده الله ؟ .

وفدى الله اسماعيل بكبش من الجنة يذبح مكانه ، وجعلها سنّة باقية في عقبه وأتباعه ، يذبحون

---

٣٠ ـ الآية (١٠٢) من سورة الصافات .

أيام النحر ويجدّدون ذكرى هذا الذبح العظيم ، ويضحّون في سبيل الله ما يشترونه بحرّ أموالهم .

« فلما أسلما وتلّه للجبين . وناديناه أن يا ابراهيم . قد صدّقت الرؤيا ، انّا كذلك نجزي المحسنين . ان هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على ابراهيم (٣١) » .

وخلّد الله تمثيل قصة الشيطان مع ابراهيم ، وجعل رجمه بالحصى في الامكنة التي اعترض فيها لابراهيم ينهاه ويصرفه ، عملا يتكرر كل عام ، وقصة تمثل في أفضل الايام اثارة لبغض الشيطان ، واظهارا للتمرد عليه والعصيان ، وهي حركة يشعر فيها المؤمن بلذة وحياة وعاطفة اذا صح فيها الايمان ، واستقام فيه الفهم ، وكمل الانقياد للاوامر ، ويعرف انه في صراع دائم مع قوى الشر ، ومعركة مع ابليس وجنوده ، وانه ليس له نصيب منه الا الرجم والهوان .

ويدور الزمان دورته ، واسماعيل الصغير شاب

---

٣١ ـ الآيات (١٠٣ حتى ١٠٩) من سورة الصافات .

قوي ، أكرمه الله بالنبوة والسيادة ، وقد أثمرت دعوة ابراهيم وتوسعت وانتشرت ، وكان لا بد لها من مركز تأوي اليه وتعتمد عليه ، وكثرت القصور للملوك والمعابد للطاغوت ، يطاع فيها الهوى ، ويعبد فيها الشيطان ، وليس لله على أرضه مسجد يخلص لعبادته ، ويطهر لقاصديه وعابديه ، فيؤمر ابراهيم بعد ما قام الدين على قدمه وساقه ، وظهرت نواة الامة المسلمة الحنيفة لبناء بيت لله تعالى ، يكون مثابة للناس وأمنا ، ومعبداً لله وحده، فيتعاون الوالد والولد في بناء هذا البيت البسيط المتواضع في مظهره ، العميق الرفيع في عظمته ، فينقلان الحجارة ، ويرفعان البناء : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربّنا تقبّل منا انك أنت السميع العليم • ربّنا واجعلنا مسلمَين لك ومن ذريّتنا أمة مسلمة لك ، وأرِنا مناسكنا ، وتب علينا ، انك أنت التواب الرحيم (٣٢) » •

٣٢ ـ الآيتان (١٢٧ ـ ١٢٨) من سورة البقرة •

وقام البيت على أساس من ايمان واخلاص ، ليس لهما نظير في الدنيا ، وتقبّله الله بقبول حسن ، وقضى ببقائه ، وكساه الجمال والجلال ، وعطف اليه القلوب والنفوس ، وجعله مهوى الافئدة ومغناطيس القلوب ، يودّ الناس لو يسعون اليه على رؤوسهم ، ويصلون اليه ببذل مُهجهم ونفوسهم ، مع تجرّده عن كل ما يستهوي القلوب ، ويستلفت الانظار ، ووقوعه في بلد بعيد عن جمال الطبيعة وبَهرج المدنية • ولما كان ذلك نودي ابراهيم: « وأذّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق • ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير • ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوّفوا بالبيت العتيق (٣٣) » •

---

٣٣ ـ الآيات (٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩) من سورة الحج •

كان العالم في عصر ابراهيم عليه السلام خاضعا للأسباب ، واعتمد الناس عليها اعتمادا زائدا ، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها ، وحتى أصبحت أربابا من دون الله ، وأصبح هذا الخضوع للاسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنية أخرى غير الوثنية التي اغرقوا فيها وغلوا ، من عبادة الاصنام والاوثان ، وكانت حياة ابراهيم ثورة على الوثنيين ، ودعوة الى التوحيد النقي الخالص ، وتحقيقا لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء وأنه يخلق الاشياء من عدم ، وأنه يخلق الاسباب ويملكها ،ويفصل الاسباب عن المسببات ، وينتزع عن الاشياء خواصها وطبيعتها ، ويستخرج منها أضدادها ، ويسخرها لما يشاء ومتى يشاء ، أشعل الناس له النيران ، وقالوا : «حرّقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين [٣٤]» ، وكان ابراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لارادة الله تعالى ، ليس الاحراق لها طبيعة دائمة لا تنفك عنها ، انما هي طبيعة مودعة أمانة فيها ، اذا أراد أطلق لها العنان ، واذا أراد أمسك الزمام ، وحوّلها الى برد وسلام ، فخاضها مؤمنا مطمئنا واثقا ، وهكذا كان : « قلنا : يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين [٣٥]» .

---

٣٤ ــ الآية (٦٨) من سورة الانبياء .

٣٥ ــ الايتان (٦٩ ــ ٧٠) من سورة الانبياء .

واعتقد الناس انه لاحياة الا بالخصب والميرة والماء الغزير، فكانوا يرتادون لاسرهم وابنائهم ، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبة تكثر فيها المياه ، ويتوفر فيها الخصب ، وتسهل فيها التجارة والصناعة ، وقد ثار ابراهيم على هذه العادة المتبعة والعرف الشائع ، والاعتماد على الاسباب ، فاختار لأسرته الصغيرة - المكونة من أم وابن - واديا غير ذي زرع ، لا زراعة فيه ولا تجارة ، منقطعا عن العالم ومراكزه التجارية ، ومواضع الرخاء والثراء ، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ويعطف اليهم القلوب ، ويجبي اليهم الثمرات من غير سبب وطريق معروف ، فقال : « ربّنا اني اسكنت من ذرّيتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون[٣٦] » .

وأجاب الله دعاءه ، فضمن لهم الرزق والامن ، وجعل بلدهم محطا للخيرات والثمرات : « أو لم نمكّن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء ، رزقا من لدنّا ، ولكن اكثرهم لايعلمون[٣٧] » « فليعبدوا ربّ هذا البيت . الذي أطعمهم من

---

٣٦ - الآية (٣٧) من سورة ابراهيم .
٣٧ - الآية (٥٧) من سورة القصص .

جوع وامنهم من خوف [٣٨]» . تركهم في أرض لا أثر فيها لماء يروي الغلة ، ويبل الحلقوم ، فاذا بماء يفور من الرمال ، ويفيض من غير انقطاع ، يشربه الناس في سخاء ،ويحملونه الى بلدهم . ويترك اهله في بلد قفر لا انيس فيه ، فاذا به يصبح مكانا يؤمه الناس من كل صوب ، ويأتون اليه من كل فج عميق .

وهكذا كانت حياة ابراهيم تحدّيا للمادية المسرفة الشائعة في عصره ، وعبادة الأسباب واتخاذها اربابا من دون الله ، ومثالا للايمان بالله وقدرته المطلقة ، وأن ارادته فوق كل شيء ، وهكذا كانت سنة الله معه ، يخضع له الاسباب ويخلق له ما تحار فيه الألباب .

الحج تخليد لخصائص ابراهيم ومآثره وتجديد لدعوته وتعاليمه :

والحج ، ومناسكه وما يحيط به من ذكريات وحوادث ، وما يتلبس به الحاج من التجرد عن المظاهر ، وما يأتي به من عمل ونسك ، من احرام ، ووقوف ، وافاضة ، ورجم ، وسعي ، وطواف ، تخليد

---

٣٨ ـ الآيتان (٣ ـ ٤) من سورة قريش

لما اختص به ابراهيم عليه السلام من التوحيد ونفي الاسباب ، والتوكل على الله والتفاني في سبيله ، وايثار لطاعته ومرضاته ، وتمرّد على العادات والاعراف ، والمعايير الزائفة والمثل المصطنعة ، وتجديد لذلك الايمان القوي ، والحب العميق والتضحية الفائقة والايثار الرفيع ، والحج ضامن لبقاء هذه المعاني السامية كلها، وهذه القيم الربانية كلها ، وبقاء الجامعة الاسلامية الانسانية التي هي فوق القوميات والعنصريات والوطنيات المحدودة المصطنعة ، ودعوة للناس الى أن يسيروا على نهج ابراهيم ويتشبّعوا بروحه ، ويقوموا بدعوته في كل عصر وفي كل مكان : « ملة أبيكم ابراهيم ، هو سمّاكم المسلمين من قبل ، وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، واعتصموا بالله، هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير » (٣٩) .

---

٣٩ ـ الآية (٧٨) من سورة الحج .

عنوان جديد ، وخط فاصل في كتاب الانسانية :

ان ابراهيم ودعوته وجهاده عنوان جديد ، نيِّر مشرق في كتاب الانســانية وامتدادها ، ينفصل به التاريخ ، وتتوزّع بــه الانسانية بين المعسكرين ، يخلدان مع الزمن ، ويبتدىء به عهد وينتهي به عهد، وقد جعل الله لابراهيم الامامة الخالدة والكلمة الباقية ، وجعل في ذريته النبوة والولاية ، والوصاية الدينية على العالم للابد ، وكتب لاسرته ومن دخل داره ، الجهاد للحق ، والوقوف في وجه الباطل الى آخــر الابد ، والدعــوة الى الله ، وتجــديف سفينة البشريــة في عواصف هوجــاء ، وأمواج عــاتية ، والمحافظة على هذا السراج من ان ينطفىء ، وهو العامل البنّاء الوحيد الذي استعمله الله في اسعاد البشريــة وعـصمها من تخريب العــالم ، وتدمير الانسانية ، وسوقها الى الجحيم

عماد الانسانية ، وقيام للناس :

والحج وشهــود الموسم ، والتقــاء أبنــاء ملّة

ابراهيم في مكة كل عام ، هو كاف لبقاء هذه الصلة ، بين ابراهيم وأتباعه ، وأبنائه الروحيين ، وتجديد هذه المعاني والعقائد والاهداف التي فيها بقاء هذه الملة والانسانية كلها ، لذلك قال الله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الارض ، وأن الله بكل شيء عليم » (٤٠) .

مركز دائم للهداية والارشاد والاصلاح والجهاد :

وجاء عهد الاسلام ودور الرسالة المحمدية الخالدة ، فأصبح هذا البيت مركزا للهداية والارشاد ، والاشعاع الروحي ، والغذاء العاطفي ، تقام حوله المناسك ، وتتغذى به العاطفة ، وتشعل به مجامر القلوب ، وتشحن به « بطاريتها » الفارغة ، ويتلقى منه الرسالة الدينية ، ويجتمع حوله العالم الاسلامي كل عام ، يؤدي خراجه من الطاعة ، وضريبته من الحب والانقياد ، ويثبت تمسكه بهذا الحبل المتين ، ولجوءه الى هذا الركن الركين ،

---

٤٠ ــ الآية (٩٧) من سورة المائدة .

ويطوف حوله أعظم العلماء والعقلاء ، والزعماء والعظماء ، والملوك والامراء ، والاغنياء والفقراء ، في وله وهيام ، وفقه وحكمة ، يثبتون انهم مجتمعون على تفرق ، متوحدون على تعدد ، متركزون على انتشار ، أغنياء على الفقر ، أقوياء على الضعف ، ينتشرون في العالم ويسعون في أرزاقهم ومصالحهم ، وينتسبون الى أمم وسلالات ، ويختلفون في الحضارات والثقافات ، ويلتقون على نقطة واحدة وحول نقطة واحدة ، وحياتهم كلها طواف وسعي ، ونسك وعبادة ، وايمان وعقيدة ، ومقاماتهم كلها منى وعرفات ، وأسفار ووقفات ، وانما هم في رحلة دائمة ، وتقدم مستمر ، وتعارف متكرر ، حتى يقضوا نحبهم ويلقوا ربهم .

الى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ،

ومسجده العظيم :

وكان من الطبيعي بعد ذلك كله أن يحن المسلم لا سيما الوافد من مكان بعيد اذا قضى حجته ، وأدى مناسكه ، الى مهجر خاتم المرسلين ومثواه الأخير ، ومأرز الاسلام ، الى المسجد الذي انبثق منه النور ، وانطلقت منه موجة الهداية والعلم ، وقوة الاسلام في العالم ، الى المدينة التي آوى اليها الاسلام ، وتمثلت فيها فصول التاريخ الاسلامي الاول ، وابتل ترابها بدموع الصحابة رضي الله تعالى عنهم ودمائهم ، فيصلي في المسجد الذي

تعادل ركعة فيه الف ركعة في غيره [41] ، ويقف في مواقف ، وقف فيها الشهداء والصديقون ، والسابقون الاولون ، فيستمد منها الصدق والايمان ، والحب والحنان ، والبطولة والشهادة في سبيل الاسلام ، ويصلّي ويسلّم على هذا النبي الذي خرج بدعوته وجهاده من الظلمات الى النور ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، وذاق لأول مرة حلاوة الايمان ، وعرف قيمة الانسان .

عرضة سنوية تحفظ على الأمة نقاءها وأصالتها وتعصم الدين عن التحريف والفساد الشامل :

والحج عرضة سنوية للملّة ، يرجع اليها الفضل في نقائها وأصالتها ، وفي بقاء هذا الدين بعيدا عن التحريف والغموض والالتباس ، وفي بقاء هذه الامة بعيدة عن الانقطاع عن الاصل والمصدر والاساس ، محفوظة من المؤامرات والمغالطات التي وقعت أمم

---

٤١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه : الا المسجد الحرام » (متفق عليه) .

كثيرة فريستها في الزمن الماضي ، وعن طريق هذه المؤسسة العظيمة الحكيمة ، تبقى هذه الامة العظيمة الخالدة محتفظة بطبيعتها الابراهيمية ، الولوع الحنون، العطوف الرؤوف، الثائرة القوية، الحنيفيّة السمحة ، وتتوارثها جيلاً بعد جيل ، فكأنها القلب الحي القوي الفياض الذي يوزع الدم الى عروق الجسم وشرايينه ، وبها تستعرض هذه الامة مجموعها في صعيد واحد ، فينتفي بذلك علماؤها وزعماؤها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين ، وخرافة المخرفين ، ويردونها الى الاصل الابراهيمي الحنيفي ، والى الشرعة المحمدية (الصافية) والى الدين الخالص ، وبها تستطيع هذه الامة أن تحافظ على وحدتها الدينية والعقلية والثقافية ، وتعتصم عن أن تؤثر فيها الاقليمية والمحلية تأثيرا يُفقدها الوحدة الحنيفية الابراهيمية، والصبغة الاسلامية المحمدية، كما كان شأن الديانات السابقة الكثيرة ، والامم الدينية العديدة .

لقد قدّر الله لهذه الامة الخالدة أن تعيش في بيئات مختلفة وفي أقاليم عديدة ، وتجتاز أدوارا كثيرة جدا ، مختلفة جدا ، من حرارة وقوة وجمود وخمود ، وعنف وقسوة ، ومصارعة ومقاومة ، واغراءات مادية وسياسية ، وتقدم في الحضارة والمدنية ، وتوسّع في المال والمادة ، وضيق وضنك ، وبذخ وترف ، وعسر ويسر ، وشدة ورخاء ، وتسلط عدو قاهر وملك جائر ، وكانت الامة في حاجة دائمة الى اشعال جذوة الايمان ، واثارة عاطفة الحب والحنان ، واعادة الوفاء والولاء في سائر الاجزاء والاعضاء ، فجعل الحج ربيعا تورق فيه أغصان هذه الشجرة الخالدة كل عام ، وتؤتي أُكلها كل حين باذن ربّها ، وتكتسي فيه هذه الشجرة العالميّة لباسا جديدا قشيبا ، غضا طريا .

وقد سبق شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي بما أكرمه الله من فقه دقيق ، وفهم عميق لاسرار التشريع ومقاصد الاسلام ، فأشار الى هذه

النكتة في كتابه « حجة الله البالغة » فقال :

« وكما أن الدولة تحتاج الى عرضة بعد كل مدة ليتميّز الناصح من الغاش ، والمنقاد من المتمرد ، ليرتفع الصيت ، وتعلو الكلمة ، ويتعارف أهلها فيما بينهم ، فكذلك الملّة تحتاج الى حج ، ليتميّزُ الموفق من المنافق ، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجا ، وليرى بعضهم بعضا ، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده ، اذ الرغائب انما تكتسب بالمصاحبة والترائي [٤٢] » .

وقـــال :

« واذا جعل الحج رسما مشهودا نفع عن غوائل الرسوم ، ولا شيء مثله في تذكّر الحالة التي كان فيها أئمة الملّة والتحضيض على الاخذ بها [٤٣] » .

وقـــال :

« ومنها تحقيق معنى العرضة ، فان لكل دولـــة أو ملة اجتماعا يتوارده الأقاصي والأداني ، ليعرف فيه بعضهم بعضا ، ويستفيدوا أحكام الملّة ، ويعظموا شعائرها .

---

٤٢ و ٤٣ ــ حجة الله البالغة (ج ١ ص ٥٩ ــ ٦٠) .

والحج عرضة المسلمين وظهور شوكتهم، واجتماع جنودهم، وتنويه ملتهم ، وهو قوله تعالى :

« واذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا [44] » .

مركز الاشعاع العالمي الخالد :

وقضى الله أن لا يخلو « الحج » في أشد أيام هذه الامة وأحلكها من الربانيين المخلصين، ومن الصالحين المقبولين ، ومن الدعاة المرشـــدين ، ومن الداعين المبتهلين ، ومن الخاشـــعين المنيبين ، ومن العلماء الراسخين الذين يملأون الجو روحانية وخشوعا ، فترق القلوب القاسية ، وتخشع النفوس العاصية ، وتفيض العيون الجامدة ، وتلتهب المجامر الخامدة ، وتنزل رحمة الله، وتغشى السكينة، ويخزى الشيطان، لذلك جاء في الحديث ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما رؤي الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، وما ذاك الا بما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن

---

٤٤ ـ المصدر السابق (ج ٢ ص ٤٢) .

الذنوب العظـام (٤٥) » • ويتكهرب الجـو فيشحن المسلمون ـ الذين جاؤوا من كل صوب بعيد وفج عميق ـ (بطارية) قلوبهم الفارغة ، ويأخذون زادا من ايمان وحب وحماسة ، وعلم وفقه ، يعيشون عليه في حياتهم الباقية،ويقاومون به كلما يواجهونه من اغراء وتسويل ، وتخويف وتزيين ، ويشركون في هـذا الزاد اخوانهم المسلمين الذين قعـد بهم الفقر أو الضعف ، أو المرض أو العـدو ، وهكذا يجري هذا التيار الكهربائي الايماني في جسم هذه الامة المنتشرة في الآفاق ، فيتعلم الجاهل ، ويقوى الضعيف ، ويتحمس الخامد ، وتكتسب الامة بذلك قوة جديدة على تأدية رسالتها ، وتستأنف كفاحها من جـديد •

مظهر الجامعة الانسانية الاسلامية :

والحج انتصار للقومية الاسلامية على القوميات

---

٤٥ ـ رواه مالك مرسلا •

الوطنية والعنصرية واللسانية التي قد يصبح بعض الشعوب الاسلامية فريستها تحت ضغط عوامل كثيرة ، وهو اظهار لشعار هذه القومية ، فتتجرّد جميع الشعوب الاسلامية عن جميع ملابسها وأزيائها الاقليمية التي تميز بعضها عن بعض ويتعصب لها أقوام ، وتظهر كلها في مظهر واحد يسمى (الاحرام) في لغة الدين والفقه وفي مصطلح الحج والعمرة ، حاسرة رؤوسها ، ما بين رئيس ومرؤوس ، وصغير وكبير ، وغني وفقير ، وتهتف كلها في لغة واحدة ، ونغمة واحدة : « لبيك اللهمّ لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ، وهكذا تتجلى القومية الاسلامية في اللباس والهتاف ، وهما من أوضح ما تجلّت فيه قومية ، وفي وحدة المناسك والغايات التي يقوم بها جميع الافراد والشعوب ويسعى اليهـا العرب والعجم ، ويلتقي عليهـا القاصي والداني ، فكلهم يطوفون حول بيت واحد ، ويسعون بين غايتين مشتركتين : (الصفا والمروة) وكلهم يقصدون (منى) ، وكلهم

يؤمون (عرفات) ويقفون في موقف واحد ، وكلهم يبيتون في مبيت واحد : « فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالّين (٤٦) » ، ويفيضون افاضة واحدة : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله ان الله غفور رحيم (٤٧) » ، وكلهم يقفون أياما في (منى) تجمع بينهم أشغال واحدة من نحر وحلق ورمي .

وما دام الحج ـ والحج فريضة باقية الى يوم القيامة ، ومؤسسة خالدة خلود هذه الامة ـ فالمسلمون لا تبتلعهم القوميات ، كما ابتلعت أمما كثيرة ، ولا يصبحون ضحيتها ، ولا تكون بلادهم التي يحبّونها بسائق الفطرة والعاطفة والعصبية قبلة يتوجهون اليها ، وكعبة يحجون اليها ، انما هي قبلة واحدة يتوجه اليها الشرقي والغربي ، والعجمي والعربي ،

٤٦ ـ الآية (١٩٨) من سورة البقرة .
٤٧ ـ الآية (١٩٩) من سورة البقرة .

إنما هي كعبة واحدة يحجّ اليها الهندي والافغاني ، والمسلم الاوروبي والامريكي : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنـا ، واتخذوا من مقـام ابراهيم ابراهيم مصلّى (٤٨) » ، ويحنّ اليها المسلم في أقصى الارض ، وينذر لهذه الرحلة النذور ويسعى اليها على الرأس والعـين ، ويعتبر ذلك غـاية الاوطار وأقصى الاماني وأعظم السعادات .

ليشهدوا منافع لهم :

وشرع الحج لجميع هذه الفوائد والمنافع التي نعلم منها الكثير ، ونجهل منها الكثير ، وربما كان ما نجهـله ونتمتع بـه أكثر مما نعرفه ومما نوّه به حكماء الاسلام ، وأشادوا به في مؤلفاتهم ، فقد قال الله تعالى : (ليشهدوا منافع لهم (٤٩)) فأطلق المنافع، ونكرّهـا وأبهمها ، ودلّ هـذا التعبير البليغ على

---

٤٨ ــ الآية (١٢٥) من سورة البقرة .

٤٩ ــ الآية (٢٨)من سورة الحج .

كثرتها وتنوعها وتجددها ، في كل زمان وأنها أكثر من أن يأتي عليها الاحصاء والاستقصاء (٥٠) ٠

---

٥٠ ــ ان الحج لا شك موسم ، يشهده المسلمون من آفاق الارض ونواحي العالم الاسلامي ، ليشهدوا منافع لهم ، فيستطيعون أن يتبادلوا الرأي السديد والفكر الحصيف، ويتعرف بعضهم ببعض ، ويجتمعوا على كلمة واحدة ومصلحة راجحة راشدة ٠

ولكن ليست هذه حكمة الحج الوحيدة ، كما اعتاد الكتاب المصريون أن ينوهوا بها ، وليس الحج مؤتمرا سياسيا فحسب ، كما يصوره كثير من حملة الاقلام ، ورجال السياسة والاجتماع في هذا العصر ، فلو كانت هذه هي الحكمة التي شرع لها الحج ، لكان في الحج استقرار وساده جو من الهدوء يساعد على ذلك ، ولكنه اضطراب وانتقال من مكان الى مكان ومن نسك الى نسك ، ولكانت دعوة مقصورة على العلماء والزعماء ، والاذكياء والنبهاء ، وعلى الخاصة من المسلمين ، انها لا شك ثمرة من ثمرات الحج ، ولكن ليست هي الغاية التي شرعت لها هذه الفريضة العظيمة ، وقد فرضت على المسلمين ، فقال تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا،ومن كفر فان الله غني عن العالمين » =

يجب أن يمثل البلد الامين الحياة الاسلامية والمجتمع الاسلامي المثالي في كل زمان :

ولما كان الحج عرضة سنوية للملّة ، يلتقي فيها المسلمون على صعيد واحد من العقيدة والعاطفة والغاية ، في جو ديني ربّاني ، وفي محيط روحي ايماني ، يستمدون منه قوة جديدة وروحا جديدة ، ويُصحّحون ما وقع في عقيدتهم من انحراف ، وفي عاداتهم وشعاراتهم من فساد ، وما اعتراهم من زيغ أو وهن بتأثير الحضارات والفلسفات العجمية الاجنبية ، وتقليد الشعوب والامم التي تجاورهم ، أو يعيشون فيها ، ويستطيعون أن يردّوا كل شيء الى أصله ، وأن يستقوا الدين من منابعه الصافية الأصيلة ؛ وجب بحكم العقل والمنطق ، وبحكم روح الاسلام وحكمة الحج ، أن يظل البلد الامين الذي

= وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ملك زادا وراحلة تبلغه الى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا » ، ولكان له وضع غير هذا الوضع ، ومكان غير هذا المكان القاحل النائي .

يقع فيه الحج ، ويدور حوله أمينا للحياة الاسلامية الصافية الاصيلة ، يصور الحياة الاسلامية بجميع جوانبها ومزاياها ومظاهرها، حتى يلمسها ويتذوقها كل وارد اليه مهما قصرت اقامته وقلّت معرفته ، لأن الله قد قضى أن يكون هذا البلد مركز الحج الى آخر الزمان ، ومثابة للمسلمين من جميع أنحاء العالم في كل سنة ، يَفِدون اليه ، وهم مؤمنون بحق بأنهم يقصدون بلدا هو معدن الطهر ، ومولد الدين وعاصمة الاسلام الروحيّة ، وكل ما يشاهد ويسمع في جوانبه هو حجة للمسلم الغريب الذي يعيش بعيدا عن مهد الاسلام ، وليس بعد عمل أهل مكة والمدينة حجة عند عامة المسلمين « وما وراء عبّادان قرية » .

وهذه الطبيعة البشرية التي لا نستطيع أن نتغلّب عليها بمنطق أو دليل ، أو خطابة أو بلاغة ، وهو الاحتجاج بعمل أهل المركز زعيم لدين أو حضارة ، وهو العرف الذي جرى في مجال اللغة

والآداب ، والحضارة والفقه ، فكانت لغة قريش ثم لغة البادية العربية ، هي الحجة في اللغة العربية، ومناهج كلامها ولهجاتها ، وكان عمل أهل المدينة حجة في مذهب كبير من المذاهب الفقهية الاسلامية(٥١)، وظلّ عمل أهل قرطبة حجة عند كثير من فقهاء المغرب عندما كانت في أوجها العلمي الثقافي، وكانت مجمع العلماء والقضاة ، واحتجّ الناس قديما وحديثا بعادات عاصمة البلاد ومركزها الحضاري ، وتنافس الناس في تقليدها،ورأوا فيها المثل الكامل، والقدوة في الحضارة والأناقة والظرف ، ودعاة الاسلام وزعماء الاصلاح يلقون صعوبة ومحنة ، اذا احتجّ الحجّاج بما قد يشاهدونه ويسمعونه في مركز الاسلام ومهبط الوحي ؛ مما لا يتفق مع أحكام الشريعة الاسلامية أو آدابها ، ويصعب ازالتهم عن ذلك(٥٢) » .

---

٥١ ــ كالمذهب المالكي .

٥٢ ــ مقتبس من حديث ألقاه المؤلف في المؤتمر الاسلامي الذي عقدته رابطة العالم الاسلامي في مكة سنة ١٣٨٤ هـ .

يجب ان يبقى « البلد الامين » محتفظا بطراز خاص ، والحج بروح الجهاد والتقشف :

وجانب أدق من هذا ، وهو أن يبقى هذا البلد الأمين ـ على مر العصور والأجيال ، ورغم تطورات المدنية ومرافق الحياة في العالم ـ محافظا على شيء من البساطة والطبيعة ، وعلى شيء من التقشف ، ويتذكر فيه الوافدون من أنحاء العالم ، الجو الذي كان المسلمون الأولون يقضون فيه مناسكهم ، ويشعرون بشعورهم ، أو قريب من شعورهم ، ويشعرون بانتقال من عالم الى عالم ، ومن جو الى جو ، ومن حياة الى حياة ، فان هذا الشعور يحدث في النفوس تخليا عن الماضي ، واستعدادا لتلقي شيء جديد ، وفرحة روحية لا يشعرون بها في مكانهم ، أما اذا بقي البيت وحده ، والحرم وحده على قدمهما ، وتغير كل شيء حولهما ، وأصبح البلد الامين وما جاوره من البقاع قطعة من أوروبا أو أمريكا ، وحلت المدنية الغربية بخيراتها

وشرورها ، وبأصولها وفضولها . وأصبح الحاج الذي وصفه لسان الشرع « بالشعث التفل » يتقلّب في أعطاف المدنية والنعومة ، وينتقل من راحة الى راحة ، ومن تنعّم الى تنعّم ، ومن حديث الى أحدث ، فانه لا يشعر بشيء جديد قوي يحدُث في مشاعره انقلابا ، ويشحنه شحنا روحيا !

ولذلك اعتبر الحج صنو الجهاد ، وقد روى البخاري عن عائشة مرفوعا : « أفضل الجهاد وأجمله حج مبرور » وعنها قالت ، « قلت يا رسول الله : نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ فقال : لكن أفضل الجهاد حج مبرور » ، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول : « شدّوا الرحال في الحج ، فانه أحد الجهادين » . واذا تطورت مكة تطورا جذريا ، واقتبست من الحضارة الغربية جميع مرافقها ووسائلها ، وتوفّرت للحج جميع أسباب الراحة والتنعم التي لاتوجد الا في العواصم الغربية الكبرى ، شعر الحجاج بشيء من الفراغ الروحي ، وبشيء

من الجفاف ، وبانحطاط ملموس في فوائد الحج ، وآثاره في النفس والحياة .

التشريعات الحكيمة لزيادة فائدة الحج ، وتقوية أثره في النفس والحياة :

وقد هيأ الوحي الالهي والتشريع السماوي للحج جوا يثير الجدّ والقصد ، وينبّه النفس والفكر ، ويحوطه بسياج من العبادة والروحانية والقدسية ، فانه كان في أكثر الاحيان رحلة طويلة ، وانتقالا من بلد الى بلد يمر فيه الحاج ببقاع مختلفة، وأجواء متنوعة ، وملاذّ وملاه ، وشواغل وصوارف قد تقصر فيها المدة وقد تطول ، ويدخل في بلد جديد ، ويختلط بأقوام وطبقات كثيرة ، ويخرج النساء مع الرجال ، وفيهم الشيوخ والشباب ، وقد تجتمع أفراد الأسرة أحيانا ، ويكون الرجل مع زوجه وأهل بيته ، وكل ذلك خليق بأن يُفقد الحج روعته ومهابته وقدسه ، وروح العبادة والجهاد فيه، وتصبح هذه الرحلة كأي رحلة عادية طبيعية ، أو الاقامة في

مكة ، والتنقل في مواضع المناسك كأي اقامة في أي بلد .

لذلك أضفى التشريع على الحج لونا لا يزول ، لونا من الجدّية والقدس ، وحاطه بأسوار وخنادق عديدة ، جعلته بعيدا عن الغفلة والذهول ، والعبث والفضول ، وله في ذلك تشريعات دقيقة حكيمة ، كانت كفيلة بأن يبقى الحج عبادة عميقة الأثر ، في النفس والحياة ، وركنا من أركان الاصلاح والتربية ، ووسيلة قوية للتقرّب الى الله .

منها : أنه جعل ركنا من أركان الاسلام الأربعة ، وفريضة على من استوفى شروطها ، لا يقبل الله عنها صرفا ولا عدلا ، فقال تعالى : « ولله على الناس حجّ البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فانّ الله غنيّ عن العالمين (٥٣) » ، وقد روى الترمذي عن علي رضي الله تعالى عنه رفعه : « من ملك راحلة وزاداً

---

٥٣ ـ الآية (٩٧) من سورة آل عمران .

يبلغه الى بيت الله الحرام ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا ، وذلك أن الله تعالى يقول: «ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا»، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بُني الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمد رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع اليه سبيلا (٥٤) » .

وقد نوّه لسان النبوّة بفضل الحج ومكانته عند الله ، وأكثر من بيان فضائله ، لأنها هي التي تثير في النفس الشوق والرغبة ، وتبعث الايمان والاحتساب ، فلا قيمة لعمل أو عبادة حتى تقترن بهما ويكونان هما الباعثين على اتيانها ، فقد روى الستّة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعا : « الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة » ، وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من حجّ لله فلم يرفُث، ولم يفسق،

٥٤ ـ متفق عليه .

رجع كيوم ولدته أمه(٥٥) » وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تابعوا بين الحج والعمرة ، فانهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس لحجة مبرورة ثواب الا الجنة ، وما من مؤمن يظل يومه محرما الا غابت الشمس بذنوبه (٥٦) » وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة (٥٧) » وسُئل النبي صلى الله عليه وسلم : « أيُّ العمل أفضل ؟ قال : ايمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور (٥٨) » .

---

٥٥ ـ للستة ، الا أبا داود .
٥٦ ـ للنسائي ، والترمذي بلفظه .
٥٧ ـ رواه مسلم .
٥٨ ـ متفق عليه .

ومن هذه التشريعات الدقيقة الحكيمة «المواقيت» التي تُنبِّه في الحج شعورا جديدا ، ويقظة فكرية روحية ، فيعرف أنه دنا من الحضرة الملوكية ، ودخل في حدودها المحمية المقدسة ، فلولا المواقيت لاقتحم الحجاج الحضرة المقدسة ، وهجموا عليها كما يهجم الجهال الأجلاف على حضرة الملوك وعتبة السلاطين، فيقابلون باستنكار وجفاء، وطرد واهانة. وقد أحسن شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي بيان حكمة المواقيت ، وسر تشريعها وتعيينها للقاصدين من جهات مختلفة ، قال :

« الأصل في المواقيت ، أنه لما كان الاتيان الى مكة شعثا تفلا ، تاركا لغلواء نفسه مطلوبا ، وكان في تكليف الانسان أن يحرم من بلده حرج ظاهر ، فان منهم من يكون قطره على مسيرة شهر وشهرين وأكثر ، وجب أن يُخَصّ أمكنة معلومة حول مكة يحرمون منها ، ولا يؤخرون الاحرام بعدها ، ولا بد أن تكون تلك المواضع ظاهرة مشهورة ؛ ولا تخفى على أحد ،

وعليها مرور أهل الآفاق ، فاستقرأ ذلك ، وحكم بهذه المواضع ، واختار لأهل المدينة أبعد المواقيت ، لأنها مهبط الوحي ومأرز الايمـان ودار الهجرة ، وأول قرية آمنت بالله ورسوله ، فأهلهـا أحق بأن يبالغوا في اعلاء كلمة الله ، وان يخصوا بزيادة طاعة الله ، وأيضا فهي أقرب الاقطار التي آمنت في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخلصت ايمانها بخـلاف جؤاثى والطائف واليمامة وغيرها ، فـلا حرج عليها (٥٩)» .

ومنها : « الاحرام » الذي ينبه في الحاج الشعور والانتباه ، ويكون حارسا له عن الغفلة والذهول ، وينبهه الى أنه مقبل عـلى أمر عظيم ، وأنه قاصد للحضرة الملوكية ، والى أنه تجرد مما كان فيه من مظاهر جوفاء وشعارات زائفة ، وأبّهة مصطنعة ، فيصير هذا الاحرام كالتحريمة للصلاة تنقله من جو الى جو ، ومن حرية وانطلاق الى تقيد وارتباط ،

---

٥٩ ـ حجة الله البالغة (ج ٢ ، ص ٤٤) .

يقول شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي رحمة الله عليه :

« اعلم ان الاحرام في الحج والعمرة بمنزلة التكبير في الصلاة ، فيه تصوير الاخلاص والتعظيم وضبط عزيمة الحج بفعل ظاهر ، وفيه جعل النفس متذللة خاشعة لله بترك الملاذ والعادات المألوفة وأنواع التجمل، وفيه تحقيق معاناة التعب والتشعث والتغبر لله [60] » .

وكذلك شرع للخروج من الاحرام والتحرر من قيوده وأحكامه طريقة ظاهرة ، تنبّه في النفس الشعور ، ولا يصعب اتيانها ، فلا يخرج الحاج من احرامه فلتة أو مفاجأة ويتمتع بالمباحات ، الا بعمل ظاهر ، وقصد وارادة ، كما لا يخرج من صلاته الا بالتسليم ، وهو الحلق ، يقول شيخ الاسلام أحمد ابن عبد الرحيم الدهلوي .

---

٦٠ ـ حجة الله البالغة (ج ٢ ، ص ٤٤) .

« السر في الحلق أنه تعيين طريق للخروج من الاحرام بفعل لا ينافي الوقار ، فلو تركهم وأنفسهم لذهب كل مذهبا ، وأيضا ففيه تحقيق انقضاء التشعث والتغبر بالوجه الأتم ، ومثله كمثل السلام من الصلاة (٦١) » .

ومنها : « التلبية » التي حث الشرع على الاكثار منها ، واستحسن النبي صلى الله عليه وسلم رفع الصوت بها وتكثيرها ، وقد سئل أي الحج أفضل ، قال : « العجُّ والثجُّ (٦٢) » .

وفي التلبية تأثير غريب في تنبيه النفس وايقاظها لمقاصد الحج ، وشحنها بالايمان والحنان ، والاطّراح على عتبة الرحمن ، وبها يسري التيار الايماني الروحي في جسم الحاج ومشاعره وأعصابه ، كما يسري التيار الكهربائي في الأسلاك ، ويُعدّ الحاج للاستفادة من هذا الركن العظيم ، الذي قد يكون قد هجم عليه من غير استعداد ، او من غير تفقه ووعي ، فاذا قال :

---

٦١ ـ حجة الله البالغة (ج ٢ ، ص ٤٥) .

٦٢ ـ رواه ابن ماجه في سننه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما .

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ، تمثل له الحج ومقاصده العظيمة وروحه ، وثارت فيه الأشواق ، وفاضت كأس الحب والحنان ، والتهبت شعلة التوحيد في عروقه ودمه ، واتصل بابراهيم الخليل ، الموحد الحنيف ، واتصل بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والداعين بدعوته اتصالا فكريا روحيا ، واندمج في حزبهم •

وقد جمع الله للحج حرمتين ، حرمة الزمان والمكان ، ليقوى الشعور بحرمة هذا الركن العظيم ، وجلاله وروعته ، والشعور بالمسؤولية ، وليكون الحاج في جميع تنقلاته وحركاته وسكناته مرهف الحس حاضر الفكر ، لا يذهل لحظة عن الجو الروحاني الذي يحيط به •

فقال تعالى : « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله ، يوم خلق السموات والارض ، منها أربعة حُرُم ، ذلك الدين القيّم ، فلا تظلموا

فيهن أنفسكم (٦٣) » . وقال : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل : قتال فيه كبير (٦٤) » ، وقد روى مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض ، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والارض،منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرم ، ورجب مضر ، الذي بين جمادى وشعبان » .

وأما حرمة المكان ، فقد جاء في القرآن : « انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها ، وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين (٦٥) » وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح (فتح مكة) : « لا هجرة، ولكن جهاد ونية، واذ استنفرتم فانفروا » وقال يوم

٦٣ ــ الآية (٣٦) من سورة التوبة .
٦٤ ــ الآية (٢١٧) من سورة البقرة .
٦٥ ــ الآية (٩١) من سورة النمل .

الفتح ـ فتح مكة ـ : « ان هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والارض ، فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة ، وانه لم يحلّ فيه القتال لاحد قبلي ، ولم يحلّ لي الا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة، لا يُعضَد شوكه ، ولا ينفّر صيده، ولا يلتقط لقطته ، الا من عرّفها ، ولا يختلى خلاها(٦٦) » وقال العباس : يا رسول الله الا الاذخر ، فانه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : الا الاذخر » .

وقد كانت المعصية في الحرم أغلظ وأشد ، وقد استدل بعض العلماء على ان ارادة المعصية فيه معصية ، بخلاف غيره من البقاع ، بقوله تعالى : «ومن يُرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم(٦٧)» . قال ابن كثير : وهذا من خصوصية الحرم ، أنه يعاقب البادىء فيه الشر اذا كان عازما عليه ، وان لم يوقعه .

---

٦٦ ـ الخلا : النبات الرطب . واختلاؤه : قطعه .

٦٧ ـ الآية (٢٥) من سورة الحج .

وقد ضم الى ذلك كله حرمة الاحرام ، وشرع له أحكاما وآدابا خاصة ، منها : حرمة الصيد في حالة الاحرام ، فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حُرُم (٦٨) » وقال : « أُحِلَّ لكم صيد البحر ، وطعامه متاعا لكم وللسيَّارة ، وحرِّم عليكم صيد البر ما دمتم حرما ، واتقوا الله الذي اليه تحشرون » (٦٩) .

يقول شيخ الاسلام الدهلوي رحمة الله عليه :

« وانما شرع أن يجتنب المحرم هذه الاشياء تحقيقا للتذلل وترك الزينة والتشعث ، وتنويها لاستشعار خوف الله وتعظيمه ، ومؤاخذة نفسه ، أن لا تسترسل في هواها ، وانما الصيد تله وتوسع(٧٠) » .

---

٦٨ ـ الآية (٩٥) من سورة المائدة .

٦٩ ـ الآية (٩٦) من سورة المائدة واقرأ تفسير الآيتين والاحكام الفقهية المتفرعة منهما ، وما في ذلك من خلاف، وتفصيل في كتب التفسير وأحكام القرآن .

٧٠ ـ حجة الله البالغة (ج ٢ ص ٤٤) .

ولما كـان الحج سفرا طويلا في غالب الاحيان ، وقد قال الله تعالى : « وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق(٧١) »، وانتقالا من حال الى حال ، ويكثر فيه الاختلاط ، وتطول الزمالة ، وتتنوع المعاملات ، كان ذلك مثارا لكثير من المحظورات والمغريات والمناقشات ، وكثيرا ما تثور النفس ويضيق الصدر ، وينفـد الصبر ، فيلجأ الحاج الى ما يتحاشى عنه في الوطن والاقامة ، والاحـوال العـادية ، ويتورط في بعض المعاصي والاخلاق القبيحة ، وما ينافي روح الحج ومقاصده ، فجاء النهي عن ذلك بصفة خاصة في الحج ، لان الحج مظنة قوية له ،فقال تعالى:« الحج أشهر معلومات(٧٢)،

---

٧١ ــ الآية ٢٧ من سورة الحج ·

٧٢ ــ هي شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة ، علقه البخاري بصيغة الجزم ، ورواه ابن جرير موصولا ، وهو مروي عن أكثر الصحابة وفضلاء التابعين ، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، (راجع تفسير ابن كثير) ·

فمن فَرَضَ فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ، ولا جدال في الحج (٧٣) وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولي الالباب (٧٤) » .

وقد أسبغت هذه التشريعات ، وهذه الاحكام التي تتصل بالقلب والجوارح ، والقصد والعمل ، والزمان والمكان ، على الحج لباسا من القدس والطهر ، والتورع والتقشف ، والمراقبة لله تعالى ، والحسبة للنفس والجهاد ، لا يشاركه فيه ما يماثله ، أو يدخل في موضوعه في الديانات الاخرى وطوائف الامم ، وكانت لها آثار عميقة في النفس والاخلاق والحياة ، يتحقق معها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من حجّ لله فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه (٧٥) » .

---

٧٣ ـ اقرأ تفسير الكلمات وأمثلتها في كتب التفسير والاحكام .

٧٤ ـ الآية (١٩٧) من سورة البقرة .

٧٥ ـ رواه الستة عن أبي هريرة ، الا أبا داود .

حجة الوداع وقيمتها التربوية والبلاغية :

حج رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر من الهجرة ، وشهد معه هذا الحج أكثر من مأة ألف من المسلمين ، وهي حجة الوداع (٧٦) .

وقد دلت كل القرائن على أن هذه الحجة كانت مقصودة من الله بهذا التفصيل ، ولم تكن فلتة من الفلتات ، بل جاءت في وقتها المناسب « وكل شيء عنده بمقدار» وكان في تأخيرها الى هذا الوقت حكمة بالغة ، ومصلحة راجحة،فقد انتشر الاسلام فيجزيرة العرب وكثر المسلمون ، وقوي الايمان ، وشب الحب ، واستعدت النفوس للتعلم والاستفادة ، وهفت القلوب ، ورنت العيون الى المشاهدة ، والمراقبة ، ودنت ساعة الفراق ، فألجأت الضرورة الى وداع الامة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم

٧٦ ـ وتسمى حجة الاسلام ، وحجة البلاغ ، وحجة التمام . (البداية والنهاية والخميس) .

من المدينة ليحج البيت . و يلقى المسلمين ، و يعلمهم دينهم و مناسكهم ، و يؤدّي الشهادة، و يبلّغ الامانة، و يوصي الوصايا الاخيرة ، و يأخذ من المسلمين العهد والميثاق ، و يمحو آثار الجاهلية و يطمسها ، و يضعها تحت قدميه .

فكانت هذه الحجة تقوم مقام ألف خطبة ، وألف درس ، وكانت مدرسة متنقلة ، ومسجدا سيّارا ، وثكنة جوّالة ، يتعلم فيها الجاهل ، و ينتبه الغافل ، و ينشط فيها الكسلان ، و يقــوى فيهــا الضعيف ، وكانت سحابة واحدة تغشاهم في الحل والترحال ، هي سحابة صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ، وحبه وعطفه ، وتربيته واشرافه .

وقد كان من آثار نضج المسلمين العقلي ، وقوة حبهم ،وشدة تعلقهم بكل ما يصدر عن هذه الشخصية الحبيبة المفدّاة ، أن سجلوا كل دقيقة من دقائق هذه الرحلة ، وكل حادث من حوادثها الصغيرة ، لا يحتفل

بأمثالها في رحلات العظماء والرؤساء ، والملوك والامراء ، والعلماء والنبغاء ، وذلك شأن المحب الوامق ، والعاشق الصادق ، الذي يرى كل شيء لمحبوبه حسنا ، فيتلذذ بذكره ، ويسترسل في حديثه ، لا يغادرُ صغيرة ولا كبيرة الا يخصيها ، ولا دقيقة نادرة الا يستقصيها •

يتطيب رسول الله عند احرامه ، فيذكرون من باشر هذا التطييب ، ويذكرون نوع هذا الطيب ، فيقولون : « ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة (٧٧) ، وطيب فيه مسك ، حتى يرى وبيص المسك في مفارقه ولحيته صلى الله عليه وسلم » ويُشعر رسول الله صلى الله عليه وسلم هديه ، فيذكرون تفصيله وتحديده ، هل كان في الجانب الايمن أو الايسر ، وكيف سلت عنها الدم ، ويذكرون احتجامه ـ والاحتجام فعل طبي طبعي لا صلة له بمناسك الحج ـ فيحددون

---

٧٧ ـ وقد أفاض الشراح في وصف الذريرة وأنواعها ، وارجع الى ذلك في مظانه •

مكانه من الجسم ، وموضعه من الطريق ، فيقولون : « واحتجم بملل » (وملل موضع بين مكة والمدينة على سبعة عشر ميلا من المدينة) ويقولون : واحتجم على رأسه بـ « لحي جمل » (وهو موضع في طريق مكة) وتهدى له قطعة لحم ، وهي حادثة عادية تتكرر ولا تسترعي الاهتمام ، في عامة الاحوال ، فيذكرونها بالتحديد والتفصيل ،فيقول الراوي : « حتى اذا كانوا بالابواء أهدى له الصعب بن جثامة عجز حمار وحشي » ويحددون المنازل بين المدينة ومكة ، ويعدون أيامه في السفر ، وذلك في زمان لم يعرف الناس فيه كتابة اليوميات ، وتدوين المذكرات ، ولكن الحب يلهم ويخترع ، فيقول الراوي : « ثم نهض الى أن نزل بذي طوى ، فبات بها ليلة الاحد لأربع خلَون من ذي الحجة ، وصلى بها الصبح ، ثم اغتسل من يومه ، ونهض الى مكة » .

ولم تفتهم شاردة ولا نادرة في هذه الرحلة التي كثرت فيها الشواغل ، وتعددت فيها المنازل ، واشتد فيها الزحام ، فلم يفتهم أن يقيدوا خروج حيّة في هذا المشهد

الحافل ، وافلاتها من القتل ، فيقول الراوي وهو يذكر ليلة منى : « وخرجت حيَّة وأرادوا قتلها فدخلت في جحرها » ويذكرون كل من كان رديف (٧٨) رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة ، ويذكرون اسم الحلاق ، وكيف قسم شعره ، ومن خصَّهم بالشق الايمن ، ومن خصَّهم بالشق الايسر ، وهذه كلها تفاصيل ودقائق لم يكن مصدرها الا الحب العميق .

ومن العبث واضاعة الوقت أن يبحث عن نظائرها في رحلات القادة ، وتاريخ المشاهير ، وقد أخلَّت أمم كثيرة بحياة أنبيائها وسيرهم وأخبارهم، ومراحل حياتهم ، وضيعوا منها الشيء الكثير ، الذي لا تكمل

---

٧٨ ـ وقد استوعب صاحب نسيم الرياض أسماء كل من أردفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ، فذكر نحو ثمانية وثلاثين رديفا ، وزاد ابن مندة على هذا العدد . راجع كتاب « حجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعمراته » للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي .

حياتهم ولا يتم تاريخهم الا به ، ولم يحافظوا الا على النزر اليسير من أخبارهم وأحوالهم ، فجل ما نعرف من حيـاة سيدنا المسيح عليـه وعلى نبينـا الصلاة والسلام هي اخبار مدة لا تزيد على خمسين يوما(٧٩) • وهنالك أصحاب رسالات وديانات في بـلاد متمدنة عريقـة في العـلم لم تبق الا أسماؤهم ، ونتف من أخبارهم لا تشفي العليل ، ولا تروي الغليل ، ولا تقود الاجيال ، ولا تنير السبيل •

« الحج والزيارة » في الديانات القديمة ، سماتها وفوارقها :

لم تـُعرف أمة ولا ديانة من أمم البشر ودياناتهم، الا وعندها أمكنة مقدسة تشد اليها الرحال، وتحث

٧٩ ـ قد جاء في دائرة المعارف البريطانية (ج ١٣ ، ص ١٦ ـ ١٧) في المقال الخاص بالمسيح عليه الصلاة والسلام « ان •••• فترة حياة المسيح التي وصلت الينا •••• أخبارها لا تزيد على خمسين يوما •

فيها المطيّ ولها طرق وعادات وتقاليد ، وآداب لهذا السفر الديني ، « والزيارة المقدسة » وذلك لان هذا العمل اجابة لحاكم الطبيعة ، وتلبية لنداء الضمير ، فالانسان كما قلنا لم يزل باحثا عن شيء يراه بعينه ، ويوجه اليه أشواقه ، ويقضي به حنينه ، ويشبع به رغبته الملحة في التعظيم والدنو ، ولم يزل باحثا كذلك عن عمل طويل شاق يكفّر به عن ذنوبه الجسام ، وسقطاته الفاضحة ، ليتغلب به على وخز الضمير وتأنيب الحسّ الديني ولائمة المجتمع ، ولم يزل في حاجة الى مشهد ديني عظيم ، يلتقي فيه على الاخوة الدينيّة والعاطفة الروحية ، لذلك لم تخل أمة من الامم ، ولا دور من أدوار المدنية من أسفار دينية ، ومناسك مشهورة ومشاهد مقدسة يجتمع فيها الناس ، ويذبحون الذبائح ، ويقرّبون القرابين لله تعالى ، أو لآلهتهم ومعبوداتهم ، وقد قال الله تعالى: « ولكل أمة جعلنا منسكا ، ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام ، فالهكم اله واحد ، فله

أسلموا وبشّر المخبتين (٨٠) » وقال : « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، فلا ينازعُنّك في الامر ، وادع الى ربك ، انك لعلى هدى مستقيم(٨١) » ، وقد اكتشفت الآثار وعملية الحفر عن هذه المناسك والمشاهد في المدنيات البائدة ، والمدن المطمورة ، وتحدث التاريخ عن وجودها ، وعن بعض أخبارها ، ولكن الاهتداء الى حقيقتهـا وتاريخهـا ، والاحكام والآداب التي تتعلق بها صعب جدا ، فقد لا يرجع الباحث في ذلك ، الا بقياسات وأخبار متقطعة مبتورة ، لا يستطيع أن يُكوّن بها فكرة كاملة ، او صورة واضحة .

والديانـة اليهودية ، ثـم المسيحية من أقـرب الديانات الينا ، وقـد عاشتا زمنا طويـلا في عصر التاريخ والعلم ، وعُني بهما المؤرخون والمؤلفون ، ولا تزالان ديانتي أمتين كبيرتين نشيطتين في الثقافة والتأليف والسياسة ، والبيت المقدس وما حوله من

---

٨٠ ـ الآية ٣٤ من سورة الحج .

٨١ ـ الآية ٦٧ من سورة الحج .

آثار ومشاهد ملتقى هاتين الديانتين ، ومركزهما الروحي الاصيل ، والحج اليه قديم وأصيل عندهما ، ولكن لا يزال هذا الركن الديني الكبير يكتنفه الشيء الكثير من الغموض والاضطراب ، وقلة المعلومات ، (اذا قارنا ذلك بالحج الاسلامي ، الذي تشغل مناسكه وأحكامه وتفاصيله مكتبة واسعة هائلة ، وهو مدوّن تدوينا لا يجد فيه الباحث عناء) . وهنا خلاصة ما جاء في « دائرة المعارف اليهودية » المجلد العاشر (٨٢) :

« ان الحج الى بيت المقدس الذي كان يدعى بالزيارة «Re yiah» يؤدى في زمن ثلاثة أعياد (وهي عيد الحصاد (٨٣) وعيد الفصح « اليهودي » وعيد

---

٨٢ ـ جيوش انسائكلوبيديا (Jewish Encyclopaedia-Vol See Pilgrimage)

٨٣ ـ جاء في دائرة المعارف اليهودية تحت عنوان عيد الحصاد ، وهو من أعياد الحج الثلاثة الذي كان جميع الذكور مكلفين فيه بالحضور في بيت المقدس ، اقرأ عنوان : (Pentecos) .

المظال) وكـان الحج فريضة على جميع اليهـود ، باستثناء الصغار الذين لم يبلغوا الحلم ، والاناث ، والعميان ، والعرج ، والضعفاء والمصابين بأمراض بدنية أو عقلية ، وكانت الشريعة الموسويّة توجب على كـل « حاج او زائر » ان يأخذ معـه « تقدمة للرب » ، ولكنها لم تعين المقدار ، وكان رغم اعفاء الاناث والصغار عن الزيارة ، كان يؤمه عدد كبير منهم مع الازواج والآباء كما هو الشأن في الاسواق العامة ، ولا تخلو الروايات التـي وردت عن عـدد الزائرين في أزمنة مختلفة من المبالغة (٨٤) وكانت الخرفان تذبح في عدد كبير ، وكانت جلود الذبائح

٨٤ ــ منهـا ، ما قيل أنه بلغ عـدد الخرفان المذبوحـة ، في عام بين ٦٣ ـ ٦٦ م الى ٢٥٦٫٥٠٠ فاذا فرض أن خروفا كان يساهم فيه عشرة رجال من الحجاج يبلغ عددهم الى اكثر من مليونين ونصف حاج أو زائر ، ويذكر مصدر يهودي أنه بلغ عدد الخراف الى ١٢٠٠٠٠ خروفا ، وقد اعترف كاتب المقال في « دائرة المعارف » بأنه لا يخلو من المبالغة ٠

تقدّم الى حراس الخانات الذين كانوا يقومون بخدمة الزوار وايوائهم من غير مقابل .

ولم تنقطع عبادة الحج بعد تدمير «المعبد» أيضا، ولما فتح المسلمون بيت المقدس بقيادة صلاح الدين عام ١١٨٧ م ، تسنّى لليهـود القاطنين في المنطقة الشرقية ان يزوروا بيت المقدس ، وما عـداه من الامكنـة المقدسة (بين دمشق ، وبابل ، ومصر) ، وقد اعتاد اليهود في الشرق ولا سيما في بابل وكردستان من القرن الرابع عشر الميلادي ، ان يؤدوا فريضة الحج مرة في السنة على أقل تقدير ، وكان عدد منهم يقوم بهذا الحج مشيا على الاقـدام ، وقـد كانت الحروب الصليبية مشجعـة لليهـود في أوروبا على الحج والزيارة ، وفي عـام ١٤٩٢ م عندما أُجلي اليهود من اسبانيا ، وهاجر عدد كبير منهم الى مناطق المسلمين ، تضاعف عدد اليهود الزوار، وربما كانوا يجتمعون على قبر النبي صموئيل في قرية الرامة(٨٥)،

---

٨٥ ــ قرية في فلسطين (الجليل) .

حيث كانت تقوم أسواق عيدهم السنوي ، وتقام التقاليد الدينية .

يعاتب اليهود اخوانهم القاطنين في بلدان أخرى، الذين ضعفت فيهم رغبة الحج والزيارة ، وزهدوا فيهما ، بينما ينتهز المسيحيون الفرص لزيارة الارض المقدسة .

وللحج أيام معينة يسميها اليهود في الشرق وشمالي افريقيا أيام الزيارة ، وقد شاع فيهم ان يزوروا فيها قبور عظمائهم،ومنهم من اشتهر كملك، أو كنبي ، أو كصالح وولي ، وهم يحتفلون بهذه الايام بالاكثار من الادعية واظهار الفرح والسرور، شأنهم في الاعياد العامة ، ويجتمعون بين مساء اليوم السابع عشر من تموز الى اليوم التاسع من « آب » ثلاثة وعشرين يوما متوالية ، مقابل الجدار الغربي لهيكل « سليمان » ، وتبتدىء هذه العبادة في اليوم التاسع من آب ، من نصف الليل .

وهنالك مشاهد وضرائح وأمكنة محلية ، يُشد اليها الرحال في كل قطر وبلد [86] » .

أما الحج والزيارة عند المسيحيين ، فهنا خلاصة لما جاء في « دائرة معارف الاديان والاخلاق » :

« الحج اسم للرحلة التي يقوم بها الانسان لزيارة المشاهد المقدسة ، مثل مشاهد الحياة الدنيوية لسيدنا عيسى عليه السلام في فلسطين ، أو مراكز زعماء الدين المقدسة في « روما » ، أو الامكنة المقدسة التي تنسب الى المقبولين من الزهاد والشهداء .

ان الجيل المسيحي الاول لم يشعر بضرورة زيارة مشاهد المسيح والتبرك بها ، بالنسبة الى المتأخرين الذين عنوا بذلك أكثر ، ولكن انتشرت هذه الزيارة من القرن الثالث المسيحي ، وقد شغف عدد كبير من المسيحيين بالبحث عن مشاهد المسيح وآثاره ،

---

٨٦ ـ راجع دائرة المعارف اليهودية . عنوان « Pilgrimage » .

وزيارتها ، وعنوا بذلك أكثر مما عنوا بتتبع تعاليمه ووصاياه .

وقد شاعت زيارة مشاهد روما من القرن الثالث عشر على حساب زيارة الارض المقدسة ، وان لم تنقطع زيارة الإرض المقدسة بتاتا ، وكانت «روما» المدينة التي تلي بيت المقدس في الاهمية ، يؤمها الناس للزيارة في عدد كبير وجم غفير .

ان الاسباب التي بلغت بها البابوية قمتها، جعلت روما مركزا للزيارة ، ولا سيما ضريحي القديس بطرس والقديس بولس قد أضفتا عليه من العظمة والجلال ، ما جعلها مثابة للمسيحيين الكاثوليك في العالم كله ، وازدحموا فيها ازدحاما كبيرا، وقد كان اقبال الزوار عظيما على سراديب الاموات (Cata combs) (٨٧) التي تقدس لاجل عظام الشهداء، ان الزوار لم يتوقفوا عن زيارة « روما » في أي

---

٨٧ ـ تقع أشهر هذه السراديب في الفاتيكان .

فترة من فترات التاريخ ، وقد جعلتها كثرة الكنائس والآثار التاريخية المقدسة محط أنظار الناس في كل زمـــان .

والقارىء يتخم بكثرة اسماء القبور والضرائح والمشاهد العامة في أرض فلسطين ، والمحلية المنتشرة في كل قطر أو ولاية ، أو بلد يقطنه اليهود والمسيحيون من زمن بعيد ، وصاحب مقال (الحج والزيارة) في « دائرة المعارف اليهودية » وفي « دائـــرة الديانات والاخلاق » يسرد أسماء ضرائح ومشاهد للصالحين والمقبولين في أقطار أوروبية وآسيوية مختلفة ، ويذكر الايام والشهور التي تزار فيها ، وما لهذه الزيارات من آداب وتقاليد ، واذا تأمل القارىء في مدى اهتمام اليهود والمسيحيين بهذه المشاهد ، وتقديسهم لها ، وتجشم الاسفار والمتاعب في سبيلها ، وكيف شغلتهم واستحوذت على مشاعرهم في كل زمان ومكان ، وكيف أثارت فيهـــم الغـــلو في التقديس والتعظيم ، حتى وصلوا الى حد الشرك ، وعبادة غير الله ، عرف سر

شدة انكار النبي صلى الله عليه وآله وسلم على هذه العادة ، واشفاقه من أن يتسرب ذلك الى المسلمين ـ حملة لواء التوحيد الى الابد ، والامة الاخيرة ـ وحرصه الشديد على أن يبقى ضريحه ومثواه الاخير بعيدا عن كل شرك وعبادة وغلوّ ، وكان ذلك هو الشغل الشاغل له في مرضه الاخير ، فقد روى البخاري عن عائشة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قالا : « لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فاذا اغتمّ بها كشفها عن وجهه ، فقال ، وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذّر ما صنعوا • وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « قاتل الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، وعن عائشة رضي الله عنها : « أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة يُقال لها مارية ، فذكرت له ما رأت فيها من الصور ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أولئك قوم اذا

مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله[88] » ، وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد [89] » .

وقد ضيّق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم السبيل في وجه تجشّم السفر الطويل،وشدّ الرّحل الى المشاهد والضرائح ، والامكنة المتبركة بقوله المأثور المشهور : « لا تشدّ الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، ومسجد الرسول، والمسجد الاقصى [90] » فوقى بذلك أمّته من الوقوع في فتنة المشاهد والآثار ، كما وقع فيها اليهود والنصارى ،

---

٨٨ ـ الجامع الصحيح للبخاري ، كتاب الصلاة « باب الصلاة في البيعة » .

٨٩ ـ رواه مالك في الموطأ .

٩٠ ـ رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، مرفوعا .

والامم الجاهلية ، وكانت فريسة الشرك والوثنية السافرة أحيانا كثيرة .

ولكن طوائف من المسلمين في القديم والحديث لم تعمل بوصيتّه التي لم ينسها في آخر عهده بالدنيا ، ولم تُلقِ لها بالا ، وافتتنت بالمشاهد والآثار، وشدّ الرحل اليها من بلدان نائية ، والعكوف عليها تبرّكا وتعبّدا ، افتتانا عظيما ، فكان ذلك تصديقا لقوله، وتحقيقا لاخباره : « لَتَتَّبِعُنّ سَنَن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع [91] » واغتصبت هذه المشاهدوالضرائح، ـومنها ما هو مكذوب ومزوّر ـ حظّ المساجد ، وحظ المسجد الحرام في بعض الاحيان ، وقد جعلها الجهّال في كثير من الاقطار

91 ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ، قيل يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن » (متفق عليه) .

« كعبة » يشدّون اليها الرّحال ، ويقصدونها من نواح بعيدة ، وقد اتخذوها عيدا يعودون اليه في كل سنة ويجتمعون في عدد كبير ، ويقيمون الاسواق .

وقد أجاد شيخ الاسلام تقي الدين بن تيميَّة في وصف هذه الطوائف بجملته التاريخية البليغة ، « **مشاهدهم معمورة ، ومساجدهم مهجورة** [٩٢] » ، والسائح في الاقطار الاسلامية يواجه هذه المشاهد والضرائح ومساحاتها الواسعة ، وأبنيتها الضخمة ، وقبابها الرفيعة في كل بلد يمرّ به ، ويرى هنالك من أعمال شركيَّة كالسجود والنّذور والذبائح ، وأدعية وسؤال من صاحب الضريح ، ما يندى له جبين الاسلام .

أما الديانات الهندية ـ بما فيها من البوذية والجينيَّة والبرهمية ـ فقد كثرت فيها المشاهد

---

٩٢ ـ راجع ما قاله شيخ الاسلام في هذا الموضوع في الجزء الاول من منهاج السنة (ص ١٣٠ ـ ١٣١) .

والمعابد ، والامكنــة « المقدّســة » المقصودة من النواحـــي والاطراف كَثرة فاحشة بطبيعة الحال ، وهي الامكنة التي يرون لها شرفا عظيما ، وقدسا خاصـــا ، ويعتقدون فيها بركة لمـــا حدث فيهـــا من الوقائـــع العظيمة ، وأُكرم فيهـــا بعض عظمائهم بالقُـرب أو الكـلام ، أو الوصول والمعرفـــة ، أو تجلّت فيها بعض آلهتهم ـ كما يزعمون ـ تجليـا خاصا ، وكثرت فيها الاعيـــاد الدينيـــة ، والمواسم والاسواق التي انصبغت بصبغة الدين .

وأكثر هذه المشاهد والامكنة المقدسة على ساحل نهر « الكنج » (Ganges) المقدس ، يجتمع فيها أهل البلاد في عـــدد هائل ، للاغتسال في النهر المقدس ، ومنها ما يجتمعون فيها سنويا ، أو عـــدة مرات في السنة ، ومنها ما يجتمعون فيها بعد سنين ، كغسل Kumbh الذي يجتمعون له بعد اثني عشر عاما ، عند ملتقى نهري «الكنج وجمنا» في برياك (Parayag (٩٣))

٩٣ ـ من ضواحي « الله آباد » المدينة المشهورة .

ومن أشهرها مدينة « بنارس » في الولاية الشمالية ، على نهر « الكنج » ويعدون الاغتسال فيه كفارة للذنوب ، ومن أعظم الحسنات والقربات، ويؤثرون الموت في هذه المدينة ، وتنقل اليها جثث الموتى من النواحي البعيدة ، لتحرق هناك ، أو تترك في النهر على اختلاف العقائد والعادات والطوائف الهندية ، ومنها بلدة « اجودهيا » التي كانت مركزا « لراما » (Ram Chander) و« متهرا » التي لها اتصال بتاريخ «كرشنا» (Krishna) ومنها « هردوار(٤٩) » وكلها في الولاية الشمالية الغربية ،وهنالك مشاهد وشواطىء، ومعابد هامة تعد بالعشرات في شبه القارة الهندية، تختلف فيها العادات والتقاليد باختلاف الاقاليم والمناطق ، وباختلاف الطوائف التي تدين بها .

ومن أعظم المراكز المحجوج اليها عند البوذيين مدينة « كيا » (Gaya) في ولاية « بهار » التي قضى

---

٤٩ ــ معناه باب المعبود ، أو باب الاله

فيها مؤسس هـذه الديانة المؤَلَّه « كوتم بـده »
Gotam Buddha مدة طويلة ، وتشرّف بالشهود أو
المعرفة التي يسمونها « نيروان » Nir Van

والاعياد والاسواق التي تُقام في هـذه الامكنة المقدسة وعلى الشواطيء، مسرح الفوضى والجنايات ويتجلى فيها عدم النظام،وعدم النظافة لكثرة الزوار والقاصدين الذين قـد يبـلغ عددهم ـ خصوصا في الاعياد والاسواق التي تُقام بعد مجموعة من السنين الى ملايين من النفوس ، رغم حرص الحكومة على اقامة النظام وقوانين الصحة،والوقاية من الامراض، وتقترن بتقاليد جاهلية، وأعمال شركيّة ، وأساطير الآلهـة والالهات القديمة ، ومن اعجاز القرآن أنه لما ذكر حج البيت الذي بناه ابراهيم وحثّ عليه • نعـى على الشرك والوثنية الزور الذي تلوثت به المناسك ، وأعمال الحج والزيارة في الديانات والامم الاخرى ، فقال : « ذلك ، ومن يعظّم حرماتِ الله فهو خير له عند ربه . وأُحلّت لكم الانعـام الا ما

يتلى عليكم ، فاجتنبوا الرجس من الاوثان،واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به (٩٥) » •

هذه صورة مجمـلة لاساليب الحج والزيارة ، والرحلة الدينية في ديانات العالم الرئيسية ، التي لا يزال لها أتبـاع ومؤمنون يُعـدّون بالملايين ، وملايين الملايين ، وقد كان شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ـ رحمة الله عليه ـ عميق النظر ، واسـع الاطـلاع ، غـير مجانب للصواب والانصاف ، اذ قال في كتابه « حجة الله البالغة » وهو يتكلم في موضوع الحج :

وأصل الحج موجود في كل أمة ، لا بد لهم من موضع يتبركون به ، لما رأوا من ظهور آيات الله فيه ، ومن قرابين وهيآت مأثورة عن أسلافهم يلتزمونها ، لانها تذكر المقرّبين وما كانوا فيه •

---

٩٥ ــ الآيتان (٣٠ ــ ٣١) من سورة الحج •

وأحقّ ما يحج اليه بيت الله ، فيه آيات بيّنات ، بناه ابراهيم صلوات الله عليه ــ المشهود له بالخير على ألسنة أكثر الامم ــ بأمر الله ووحيه بعد أن كانت الارض قفرا وعرا ، اذ ليس غيره محجوج ، الا وفيه اشراك أو اختراع ما لا أصل له (٩٦) » .

ويستطيع القارىء في سهولة أن يقارن بينها وبين الحج الاسلامي ، ويعرف مفارقات بينها وبين هذا الركن الرابع ، ويقرأ قوله تعالى ، ويحدّث بنعمة ربّه : « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، فلا ينازعُنّك في الامر ، وادع الى ربّك انك لعلى هدى مستقيم (٩٧) » .

دور الاسلام الاصلاحي في تشريع الحج :

وقام الاسلام ــ شأنه في الاركان الثلاثة

٩٦ ــ حجة الله البالغة (ج ١ ص ٥٩) .
٩٧ ــ الآية (٦٧) سورة الحج .

الآخرى [٩٨] ــ بدوره الاصلاحي التجديدي في الحج، وقد كان أهل الجاهلية قد أدخلوا في الحج عادات جاهلية ، وأمورا ابتدعوها ، ما أنزل الله بها من سلطان ، واصطلحوا على أشياء ، وتواضعوا عليها من الزمن القديم ، فكان تحريفا في الحج الذي شرعه الله على لسان ابراهيم ، وتوارثته قبائل العرب جيلا بعد جيل ، جنى على كثير من مقاصده وفوائده ، وكانت الحمية الجاهلية ، والنخوة للقبليّة ، وما كانت عليه قريش من التفاخر والكبرياء ، وحرصهم على التميّز ، هو الباعث الاكبر على هذه الزيادات والتحريفات ، فجاء القرآن والتشريع الاسلامي بازالة هذه البدعة والتحريفات وابطالها ، وقد تصدى القرآن الحكيم لكل بدعة من هذه البدع ، ولكل موقف من مواقف الجاهلية الدخيلة ، فاجتثّه واستأصل شأفته ، وأبدله بخير منه .

---

٩٨ ــ الصلاة ــ الزكاة ــ الصيام .

فمن ذلك أن قريشا لم يكونوا يدخلون عرفات مع الحجيج ، بل يقفون في الحرم ، ويقولون : نحن أهل الله في بلدته وقطّان بيته ، ويقولون : نحن الحُمس ، وما ذلك الا ليتميّزوا عن سائر الناس ، ويحافظوا على مركزهم الجاهلي ، وعلى ما كانوا يتخيلونه من سمو وامتياز ، فأبطل الله هذا الامتياز الجاهلي وأمرهم بأن يعملوا كما يعمل الناس ، ويقفوا بعرفات ، وقال : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس (٩٩) » ، روى البخاري باسناده عن عائشة رضي الله عنها : « كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمّون الحُمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الاسلام أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يأتي عرفات ثم يقف بها ، ثم يفيض منها ، فذلك قوله : « من حيث أفاض الناس » قال ابن كثير ، وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسدّي ، وغيرهم رضوان

---

٩٩ ـ الآية ١٩٩ من سورة البقرة .

الله عليهم واختاره ابن جرير ،وحكى عليه الاجماع .

ومنها أن أهل الجاهلية كانوا قد اتخذوا الموسم سوقا للتفاخر والمساجلة ، كما كان شأنهم في «عكاظ» و « مجنة » و « ذي المجاز » ، وكانوا ينتهزون كل فرصة للاجتماع وتلاقي القبائل للتطاول بالانساب، ومآثر الآباء وعد المفاخر ، وكان الاجتماع في « منى » خير مكان لارضاء العاطفة الجاهلية ، فنهى الله عن ذلك ، وأبدلهم بما هو خير منه ، وهو ذكر الله ، فقال : « فاذا قضيتم مناسككم ، فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا (١٠٠) » . قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم، فيقول رجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات، ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آباءهم ، فأنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم : « فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا » .

---

١٠٠ – الآية ٢٠٠ من سورة البقرة .

ومنها أن الحج قد فقد على مر الايام شيئا كثيرا من قُدسه وطهره ونزاهته ، وأصبح عيدا من أعياد الجاهلية ، ومكانا للّهو والخصام ، فذمّ الله ذلك في القرآن ، وقال : « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج (١) » قال ابن كثير ، قال عبد الله بن وهب ، قال مالك ، قال الله تعـالى : (ولا جدال في الحج) فالجدال في الحج ـ والله أعلم ـ أن قريشا كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، وكانوا يتجادلون ، يقول هؤلاء : نحن أصوب ، ويقـول هؤلاء : نحن أصوب ، هذا فيما نرى ، والله أعلم ، وعن محمد ابن كعب قـال : كانت قريش اذا اجتمعت بمنى ، قال هؤلاء : حجنّا أتمُّ من حجكم ، وقال هؤلاء : حجنا أتمُّ من حجكم .

•

ومنها أن العرب كانوا في جاهليتهم اذا ذبحـوا الهدايا والضحايا لآلهتهم وضعوا عليها من لحـوم

---

١ ـ الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

قرابينهم ، ونضحوا عليها من دمائها ، فقال تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها [٢]) قال ابن كثير ، قال ابن ابي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن أبي حماد ، حدثنا ابراهيم بن المختار عن ابن جريج ، قال : كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الابل ودمائها ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنحن أحق أن ننضح ، فأنزل الله تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) .

ومنها أن العرب كانوا اذا نووا الحج تحرّجوا من دخول البيوت من الابواب ، وكانوا يرون ذلك اثما وتفريطاً في جنب الله وفي جانب الحج ، وكانوا يتسوّرون البيوت من ظهورها ما داموا محرمين ، فأبطل الله ذلك ، ونفى أن يكون من أنواع البرّ ، وقال : (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البرّ من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها [٣])

٢ ـ الآية ٣٧ من سورة الحج .
٣ ـ الآية ١٨٩ من سورة البقرة

قال البخاري : حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن اسرائيل ، عن أبي اسحاق ، عن البراء ، قال : كانوا اذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله : (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البرّ من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها (٤)) وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة ، عن أبي اسحق ، عن البراء ، قال : كانت الانصار اذا قدموا من سفَرهم ، لم يدخل الرجل من قِبَل بابه ، فنزلت هذه الآية .

ومنها أن أناسا من العرب كانوا يستحيون ويتأثمون من أن يخرجوا للحج مع زاد يبلّغهم الى البيت ويتجلدون، ويتظاهرون بالتوكل ، ويقولون: نحن ضيوف الله ، ولا نتزود ولا نتبلّغ ، وكانوا لا يتحرجون من التسول والشحاذة ، والاستجداء ، ويعدّون ذلك في سبيل الله ، فنهاهم الله عن ذلك ،

---

٤ ـ الآية ١٨٩ من سورة البقرة .

وقال : وتزوّدوا فان خير الزاد التقوى (٥)) قال ابن كثير : قال العوفي عن ابن عباس : كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة ، يقولون : نحجّ بيت الله ولا يُطعمنا ؟ ، فقال الله تعالى : (تزوّدوا) ما يكفّ وجوهكم عن الناس ، وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون ، ويقولون : نحن المتوكلّون ، فأنزل الله : (وتزوّدوا فان خير الزاد التقوى) .

وكذلك كانوا يتأثمون من التجارة في الموسم ، وذلك تحريم ما أحلّ الله ، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقا في الجاهلية ، فتأثموا أن يتّجروا في الموسم ، فنزلت: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم (٦)) في مواسم الحج . وعن مجاهد رضي

٥ ـ الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

٦ ـ الآية ١٩٨ من سورة البقرة .

الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنـه قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج ، يقولون أيام ذكر ، فأنزل الله : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) .

ومنها أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراة ، ويقولون : لا نطوف في ملابس عصينا فيها ، فكان ذلك بابا لفساد عظيم ، وتشريعا جاهليا ، فأنزل الله تعالى: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد(٧)) روى مسلم والنسائي ، وابن جرير ــ واللفظ ل ــ عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال والنساء ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليوم يبـدو بعضه أو كلـه
ومـا بـدا منـه فـلا أحـله

فقال تعالى : « خـذوا زينتكم عند كل مسجد »

٧ ــ الآية ٣١ من سورة الاعراف .

وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » الآية ، قال : كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس ، وهو ما يوازي السوأة ، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع ، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، وقال ابن كثير : هكذا قال مجاهد وعطاء ، وابراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، وقتادة والسدي والضحاك ، ومالك ، عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها ، أنها نزلت في طوائف المشركين بالبيت عراة .

وقد قرن ذلك بأمر وتنفيذ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل أبا بكر رضي الله عنه في العام التاسع ، وأمره بأن يعلن : « لا يطوف بالبيت عريان » وقد روى البخاري باسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه : « أن أبا بكر الصديق بعثه في الحجة التي أمره النبي صلى الله عليه وسلم عليها قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذن في الناس

« لا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوفنّ بالبيت عريان [8] » .

ومنها أن الطوائف من أهل العرب كانت تتحرج أن تطوف بالصفا والمروة ، وكانوا يرون ذلك من أمر الجاهلية ، فأنزل الله : « ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما [9] » قال عروة عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قلت أرأيت قول الله تعالى : « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما » قلت : فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوّف بهما ، فقالت عائشة رضي الله عنها : بئس ما قلت يا ابن أختي ، انها لو كانت على ما أوّلتها عليه ، كانت فلا جناح عليه أن يتطوّف بهما ، ولكنها انما أنزلت ، ان الانصار قبل

---

٨ ـ الجامع الصحيح للبخاري ـ كتاب المغازي « باب حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس » .

٩ ـ الآية ١٥٨ من سورة البقرة .

أن يُسلموا كانوا يهلّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المُشلّل ، وكان من أهلّ لها يتحرّج أن يطوّف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : يا رسول الله انّا كنا نتحرّج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : (ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما » (١٠) قالت عائشة رضي الله عنها : ثم قد سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بهما ، فليس لاحد أن يدع الطواف بهما (١١) وقال البخاري رضي الله عنه : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان عن عاصم بن سليمان : قال : سألت أنسا عن الصفا والمروة ، قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الاسلام أمسكنا عنهما ، فأنزل الله عز وجل : (ان الصفا والمروة من شعائر الله) .

---

١٠ ــ الآية ١٥٨ من سورة البقرة .
١١ ــ أخرجاه في الصحيحين .

وبهـذه الاصلاحات البعيـدة الاثر رد التشريع الاسلامي هذا الركن العظيم الى أصله الابراهيمي ، ووضعه الاصيل النقي البعيد عن تأويل الجاهلين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين (١٢) .

وقد أحسن شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، اذ قال :

« اعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم بعث بالملة الحنيفية الاسماعيلية ، لاقامة عوجها وازالة تحريفها واشـاعة نورها ، وذلك قوله تعالى : « ملة أبيـكم ابراهيم » ، ولما كان الامر على ذلك ، وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة ، وسننها مقررة ، اذ النبي اذا بعث الى قوم فيهم بقية سنة راشدة ، فلا معنى لتغييرها وتبديلها ، بـل الواجب تقريرها ، لانه أطوع لنفوسهم ، وأثبت عند الاحتجاج عليهم (١٣) » .

---

١٢ ـ استفدنا في هذا البحث من توجيهات أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله « في سيرة النبي » المجلد الخامس .
١٣ ـ حجة الله البالغة (ج ٢ ص ٥٦) .

فهرست